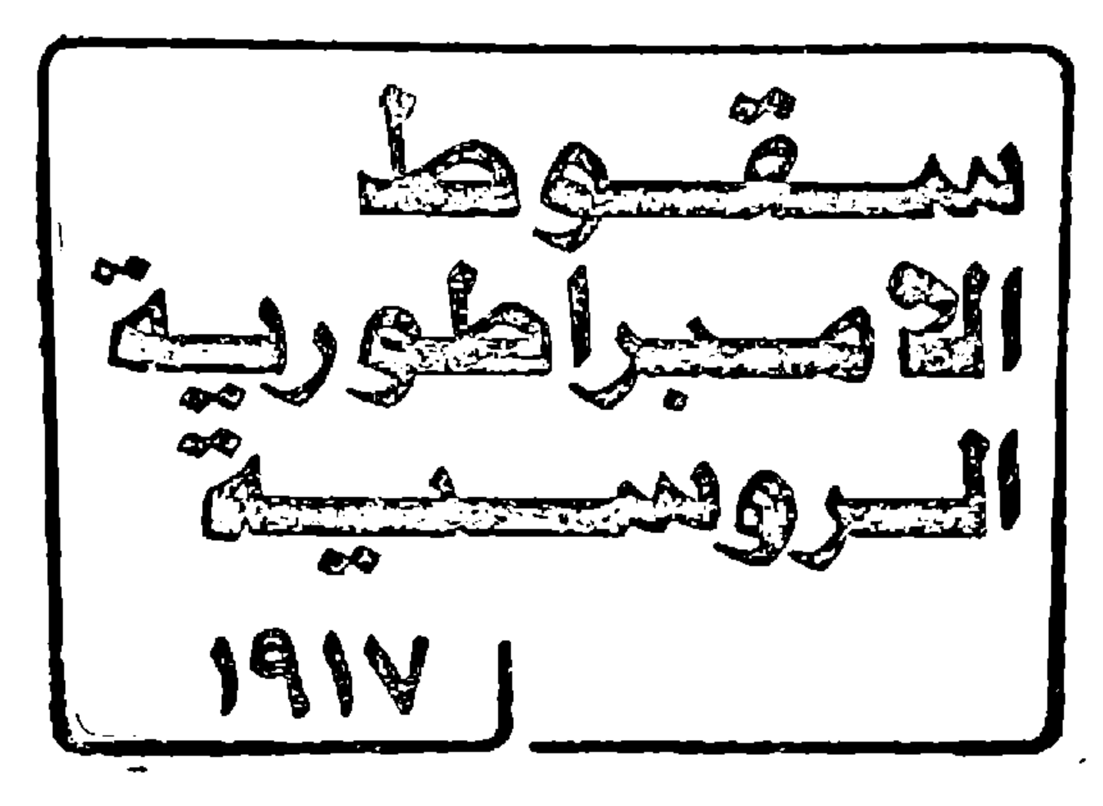


القصة الحقيقية للثورة الروسية
وإقامة الاشتراكية

افنير كورلين
ستانيسلاف تيوتيوكين

ترجمة: أسما حليم

(من حظ العمال الروس ومما يشرفهم أنهم أول من أشعل الثورة ، هـــذه الحرب العظيمة ، وهى الحرب الوحيدة المشروعة والعادلة ، الحرب التى يخوضها المضطهدون ضد المستبدين) .

كانت بداية القرن العشرين من الفترات العاصفة فى تاريخ روسيا . ففى السنة الأولى من القرن الجديد دخلت روسيا ، التى كانت حتى ذلك الحين من المواقع الحصينة للقوى الرجعية فى العالم فترة تميزت بعمق الأزمة السياسية التى شملت جميع فئات المجتمع الروسى وكان من أثر هذه الأزمة التى زادت باضطرار عمقا واتساعا ، أن قامت أول ثورة بورجوازية ديموقراطية فى البلاد فى ١٩٠٥ — ١٩٠٧ ، والتى كانت موجهة إلى النظام الملكى الاستبدادى القائم ، وانتهى عامان ونصف عام من القتال الشرس بين الأهالى الثائرين والحكومة القيصرية بهزيمة الثورة[1] .

غير أن قوى الثورة لم تسحق . فلم تكد تنقضى ثلاث سنوات حتى بدأت حركة ثوريه جديدة . وأعيدت إقامه المتاريس فى صيف عام ١٩١٤ . ولم يكن لنشوب الحرب العالميه الأولى من أثر غير تأجيل الانفجار الثورى ، وربما كان ذلك من دواعى شدة الانفجار الذى حدث قرب إنتهاء الحرب .

---

(١) بدأت الثورة عندما أطلق الرصاص بناء على أوامر القيصر على مظاهرة سلميه للعمال فى مدينه سان بطرسبرج فى ٩ يناير ١٩٠٥ . وردت الطبقه العاملة على تلك المذبحه بإعلان إضرابات سياسيه نادت فيها بسقوط الاستبداد . وكانت الأهداف المباشرة للثورة هى الإطاحه بالاوتوقراطيه القيصريه ، ومصادرة الملكيات الزراعيه الكبيرة ، وتطبيق يوم العمل ذى الثمانى ساعات ، ومنح الشعب حقوقه الديموقراطيه . وقد حدد فلاديمير لينين منذ عام ١٩٠٥ واجب الانتقال من الثورة البورجوازيه الديموقراطيه إلى الثورة الاشتراكيه . ووصلت الإنتفاضه الثوريه إلى قمتها فى هبه مسلحه وقعت فى موسكو فى الفترة بين ٩ و ١٨ ديسمبر ١٩٠٥ . وانتحرت الثورة نتيجة لعدم تنسيق الجهود بين العمال والفلاحين والجنود والافتقار إلى وحدة صفوفهم .

فى فبراير ١٩١٧ قامت ثورة بورجوازيه ديموقراطيه أخرى اكتسحت النظام الاستبدادى الفاسد خلال أيام معدودات .

غير أن المشاكل التى تواجه البلاد كانت من التعقيد والاتساع ، والتناقضات التى تمزق المجتمع الروسى من العمق والحدة ، والقوى المشتركة فى الصراع من الضخامه والتنوع بحيث لم يكن انتصار ثورة فبراير ذاته كافيا لخروج روسيا من المأزق الذى دفعتها إليه الطبقات الحاكمه . وأصبح لابد من قيام ثورة أخرى ، إشتراكيه ، لإنقاذ البلاد من كارثه قوميه . وتوجت تلك الثورة بإنشاء أول دولة فى العالم للعمال والفلاحين فى أكتوبر ١٩١٧ .

فلماذا كانت الثورة الاشتراكيه ضروريه وحتميه فى روسيا ؟ ولماذا لم تتكرر الأنماط الكلاسيكيه للثورات البورجوازيه التى عرفها الغرب ؟ سنحاول هنا أن نقدم الإجابه على هذين السؤالين .

* * *

أولا ـ تناقضات المجتمع الروسى

الجمع بين الراسمالية الصناعية والمالية المتقدمة والملكية الاقطاعية للارض ونظام سياسى عتيق

لكل حدث تاريخى جذوره العميقه ، ويصدق ذلك بصورة خاصه على نقطة تحول جوهريه مثل ثورة أكتوبر ١٩١٧ .

ولذا سيكون علينا ، لنتبين الأسباب التى أدت إلى الثورة الاشتراكيه فى روسيا ، أن نرجع ببصرنا إلى الماضى ، إلى أواسط القرن المنصرم .

كانت رياح الثورات البورجوازيه قد اكتسحت أمامها العصور المظلمه وطهرت منها معظم الدول الغربيه . ولكن يمكن أن يقال أن روسيا ، نتيجه للجهود اليائسه التى بذلتها قواها الرجعيه الإقطاعيه ، كانت قد تجمدت وتحصنت ضد روح العصر . وقد عبر السائح الفرنسى الماركيز استولفى دى كوستين عن ذلك تعبيراً بليغاً بقوله إن روسيا فى تلك الأيام كانت إناء يغلى وعليه غطاء محكم وقد وضع فوق نار ملتهبه[1] .

وكانت البلاد متجهه إلى أحداث حبلى بالثورة ، وقد أدركت الحكومه القيصريه مدى خطورة الموقف . ففى أواسط القـــرن التاسع عشر واجهت الاوتوقراطيه الروسيه الاختيار بين فقد سيطرتها أو إيجاد شىء من التلاؤم مع الاتجاه الرأسمالى الذى يتطور باستمرار واضطرت الأوتوقراطيه بعد الهزيمه المخزيه فى حرب القرم إلى البدء فى تنفيذ بعض الإصلاحات البورجوازيه .

---

(1) Marguis de Custine . Russia under Nicolas , Moscow 1930 P . 135

وأدى إلغاء القنانة فى عام ١٨٦١ إلى إنهاء الخضوع الشخصى من جانب الفلاحين لملاك الأرض . وبذلك رفع إلى حد ما الغطاء المحكم عن الإناء الذى يغلى . وكان من الإصلاحات التى نفذت خلال الستينات والسبعينات من القرن الماضى إنشاء محاكم مستقلة ، وإجراء المحاكمات علنا ، وإقامة الحكم الذاتى المحلى ، والخدمة العسكرية المحلية ، وغير ذلك من الإجراءات التى أضفت على روسيا مظهر البلد الاوربى . لكنها لم تؤد إلى أكثر من تأجيل الانفجار الحتمى .

فهذه الإصلاحات وإن كانت بورجوازية فى جوهرها، قد نفذها الاستبداد الاقطاعى من « أعلى » وكان هدفها الأساسى المحافظة على أكبر قدر ممكن من الامتيازات الاقتصادية والسياسية للسادة النبلاء والحكم الملكى المطلق . ولذا لم يكن غريباً أن يتسم تطور روسيا فى الاتجاه الرأسمالى بالتعقيد والتناقض .

فنجد من ناحية أن السياسة الاقتصاديه الرسمية قد ساعدت التطور التلقائى للرأسمالية وعجلت به وكانت الحكومة تسعى إلى تعزيز القدرة العسكرية الاقتصادية للبلاد لرفع مكانتها الدولية بوصفها إحدى الدول الكبرى ، كما تحاول إرساء الأساس لتنظيم إقتصادى جديد للملكيات الزراعية ، وكانت الحكومة مضطرة من أجل تحقيق ذلك إلى الاسراع بتنمية عدد من القطاعات الأساسية للاقتصاد بصورة مصطنعة ، وفى مقدمتها الصناعات الثقيلة .

ومن ناحية أخرى كان لدى الاوتوقراطيه إحساس غريزى بما يمكن للتطور الرأسمالى أن ينزله بالنظام الاستبدادى من دمار ، ولذا بذلت كل ما فى وسعها لدفع هذه العمليه نحو مسالك مأمونه . لكن المستبدين تعذر عليهم بعد إطلاق الجنى من القمقم ، أن يحتفظوا بسيطرتهم عليه .

وكانت السياسه التى اتبعتها الاوتوقراطيه سياسه متناقضه ولا تنفذ بحماسه ،

وثبت فى المدى الطويل أنها ضارة بالنظام القيصرى . ونتج عنها تفاقم التناقض الرئيسى فى فترة ما بعد تنفيذ الاصلاح ، ألا وهو التناقض بين العلاقات الرأسماليه التى تتطور بسرعه فى كافه مجالات الحياة الاجتماعيه وبين بقايا الاقطاع .

وخلال العقود القليلة التى أعقبت عام ١٨٦٠ قطعت روسيا شوطا تطلب مثيله من بعض دول الغرب الرئيسيه بضعه قرون خلال فترة زمنية قصيرة تاريخيا نشأت صناعات جديدة وحديثه كالبترول ، والفحم ، وصنع الآلات ، والهندسه الكهربائيه ، والصناعات الكيماويه .

وبحلول عام ١٩٠٤ كانت البلاد تملك حوالى ٣٠٠٠٠ مصنع ، وأدخلت الأساليب الحديثه على المراكز الصناعيه القديمه والمناطق الاقتصاديه العتيقه ، ونشأت مناطق جديدة وارتبطت هذه المناطق بشبكة من الخطوط الحديدية وصل طولها فى عام ١٩١٧ إلى أكثر من ٨٠٠٠٠ كيلو متر ، ولم يكن يسبق روسيا فى هذا المجال غير الولايات المتحدة . كما أدخلت وسائل الاتصال الحديثه كالتليفون والتلغراف .

وبذلك أصبح الاقتصاد الروسى جزءاً من النظام الرأسمالى العالمى ، وأصبح يتأثر بشدة بالنبض الدورى للاقتصاد العالمى — فترات الانتعاش فلأزمه والكساد . ففى بعض الأحيان كانت روسيا تتقدم بسرعه ، وفى أحيان أخرى تتقدم بمعدل أبطأ . وكانت فى بعض الأحيان تتأخر عن الولايات المتحدة وألمانيا فى معدل زيادة الانتاج ، ولكنها كانت تسبق بريطانيا وفرنسا دائما . وشهدت الصناعات الروسية معدلات سريعة للنمو بشكل استثنائى خلال تسعينات القرن الماضى ، ومرة أخرى قبيل الحرب العالميه الأولى (١٩٠٩ — ١٩١٣) وفى كل مرة خلال هاتين الدورتين تمكنت من مضاعفة إنتاجها الصناعى الاجمالى ، وكانت أولى دول العالم فى معدل نمو الانتاج .

وفى عام ١٩١٣ كانت روسيا تحتل المركز الرابع أو الخامس فى الإنتاج الصناعى العالمى ، إذ أصبحت مساوية لفرنسا فى الإنتاج الإجمالى ومسابقة لها فى عدد من قطاعات الصناعة الثقيلة . وأصبحت روسيا بلداً صناعياً زراعياً على درجة متوسطة من التطور وانضمت إلى نادى دول العالم الكبرى وذلك بفضل مساحة أراضيها الشاسعة ، وتعداد سكانها ، ومواردها الطبيعية ، وإمكانياتها الاقتصادية والعسكرية .

وقد أمكن تحقيق هذا الازدهار الصناعى نتيجة للفرصة المتاحة لروسيا لاستخدام رؤوس الأموال الأجنبيه على نطاق واسع ، والخبرة التنظيميه والفنيه للدول الأكثر تقدما . وظهرت صناعات جديدة لإنتاج الآلات ، كما زودت المصانع بمعدات مستوردة إن لم تكن من أحسن طراز فهى على كل حال من المعدات الحديثه . وبدأ فيما بعد تزويد الصناعه جزئيا بمعدات مصنوعه محلياً . ولجأت روسيا إلى استخدام الخبراء الأجانب لتنظيم الإنتاج وانتهزت الدول الغربيه التى كان لديها فائض من رؤوس الأموال غير المستغلة هذه الفرصه للقيام باستثمارات مربحه فى روسيا .

ودخلت رؤوس الأموال الأجنبيه إلى القطاعات الأساسيه للاقتصاد الروسى ولكن ليس معنى ذلك أن الصناعه فى روسيا كانت مجرد تابع للشركات الأجنبيه وإذا كانت رؤوس الأموال الأجنبيه تستثمر فى الدول التابعه أو شبه التابعه فى المقام الأول فى القطاعات المشتغلة بإنتاج المعادن وتجهيز المواد الخـــام ، فقد استخدمت فى روسيا لتطوير الصناعات الأساسيه ، وسعت إلى التلاؤم مع احتياجات البلد وإلى التعاون الوثيق مع رؤوس الأموال المحليه . وكان معظم الاستثمارات فى صورة قروض حكوميه أو قروض مضمونه من الحكومه استخدمت قبل كل شىء فى إنشاء السكك الحديديه . ولم تتجاوز الاستثمارات

الأجنبية المباشرة فى أى وقت ثلث رؤوس الأموال المستغلة فى الشركات المساهمة، بل إن روسيا نفسها كانت تستثمر بعض أموالها فى مستعمراتها وفى بعض البلدان الأقل تقدما (الصين وإيران ومنشوريا) وإن كانت هذه الاستثمارات ضئيلة نسبيا .

ولم يكن لرؤوس الأموال الأجنبية أثر موحد على الاقتصاد الروسى . فمع اقتراب نهاية القرن التاسع عشر كان مجموع الفوائد التى تدفع للقروض الأجنبية يتجاوز رؤوس الأموال الواردة من الخارج . ونشأت عن ذلك أزمة فى ميزان المدفوعات ، وزيادة فى الضرائب ، وترتب عليها احتدام المنازعات الاجتماعية . وأخيراً وليس آخراً فإن مقادير متزايدة من القروض الأجنبية التى كانت تستخدم لدعم النظام الإقطاعى الاستبدادى ، أصبحت هى العقبة الرئيسية فى طريق التقدم الاجتماعى والاقتصادى والسياسى .

وفى مطلع القرن العشرين بدأت بعض التغييرات الجوهرية المميزة للبلدان الصناعية تبرز فى هيكل الصناعة الروسية وتجهيزها الفنى وأشكالها التنظيمية .

ولما كانت الصناعة الثقيلة تسبق الصناعة الخفيفة بكثير فى معدل زيادة الإنتاج ، فإن الميزان بدأ يميل بشكل متزايد لصالح القطاعات التى تقوم بصنع وسائل الإنتاج ، فزادت حصتها من ٣٠ ٪ إلى ٤٠ ٪ فى بداية القرن العشرين ، وهو معدل يزيد قليلا عن نظيره حتى فى ألمانيا وفرنسا . وكانت الزيادة فى الإنتاج الصناعى ، وخصوصا خلال فترة الازدهار السابقة على الحرب ، مصحوبة بتغيرات واضحة فى تجهيز المصانع وتكنولوجيتها ، وفى تحسين تنظيم الإنتاج . وكان معظم المصانع الجديدة — وتمثل نحو نصف المؤسسات القائمة — مساوية بوجه عام لأفضل الشركات الأجنبية فيما يتعلق بتجهيزها ومعداتها . وقد لاحظ ذلك أحد الكتاب الفرنسيين فقال « وصلت روسيا فى عام ١٩١٢ إلى مستوى

أوروبا من حيث تجهيز الإنتاج الصناعى »[1] .

وكان تطور الهندسه والتكنولوجيا فى روسيا قد بلغ أيضا مستوى لا بأس به . فالانواع الجديدة من السفن والقاطرات والمحركات التى بدأ إنتاجها فى مطلع القرن العشرين كانت مطابقه للمستويات العالميه فى ذلك الحين .

وأدى التركيز المتزايد للانتاج ورؤوس الاموال إلى ظهور إتحادات إحتكاريه قويه فى الاقتصاد الروسى . وأصبح نفوذها ملموسا فى جميع جوانب الحياة .

وكانت روسيا فى مقدمة دول العالم من حيث مستوى تركيز الإنتاج الصناعى الكبير . ومئات المصانع الكبيرة التى تستخدم أكثر من ٥٠٠ عامل أكثر من ٧٠ ٪ من إجمالى الإنتاج ونحو ثلاثة أرباع الأيدى العامله منذ أواخر القرن التاسع عشر . ففى عام ١٩١٤ كان متوسط عدد العمال فى المصانع الكبيرة فى روسيا ١٤٠٠ عامل فى مقابل ١١٠٠ فى الولايات المتحدة و ٩٠٠ فى ألمانيا .

رغم أن عدد الشركات المساهمه فى روسيا كان أقل منه فى الدول المتقدمه ، وأن حجم رأس المال المساهم كان أقل أيضا ، فإنها كانت تسبق الكثير من تلك الدول ولا سيا بريطانيا وألمانيا من حيث متوسط حجم رأس المال . وكان هذا التركيز الشديد للانتاج ورؤوس الاموال هو مادفع إلى تشكيل إتحادات المنتجين التى احتكرت إنتاج وتسويق عدد من المنتجات الصناعيه الرئيسيه . وقبيل الحرب العالمية الأولى كان فى روسيا مايتراوح بين ١٥٠ و ٢٠٠ من هذه الاحتكارات الكبرى ، تحتكر أكثر من ٨٠ نوعا من السلع الصناعيه وبالإضافه إلى ذلك بدأت الاتحادات الشبيهه بالتروستات فى الظهور إلى جانب إحتكارات التسويق كالكرتلات والسنديكات . وكانت درجه الاحتكارات عاليه جدا

---

(1) R - de Bonand . les trois Empires asiatique : Russie - chine - Japon . Paris , 1913 . P .138

ولا سيما فى الصناعة الثقيلة . ومثلت الاتحادات الاحتكارية فى صناعات الفحم والحديد والصلب مثلا ما يقرب من ثلاثة أرباع الحجم الإجمالى للانتاج . ووصل الرقم إلى ١٠٠ ٪ فيما يتعلق بانتاج وسائل النقل والمواصلات .

ولعبت البنوك دوراً أساسياً فى هذه العملية . فإلى جانب بنك الدولة الذى كان له أكثر من ١٠٠ فرع ، كان فى روسيا فى عام ١٩١٤ ، ٥٣ بنكا تجاريا يعتبر كل منها شركة مساهمة ، لها ٧٧٨ فرعا ، ١١٠٨ من بنوك الرهونات فى المدن و ٢٠ بنكا كبيراً للرهونات و ٣٦ بنكا للتسليف، وأكثر من مائة مؤسسة أخرى للتسليف والإقراض .

وكانت البنوك التجاريه تحتل المكانه الرئيسيه فى هذا المجال ، إذ كان يتركز لديها ٧٠ ٪ من إجمالى الودائع والحسابات الجاريه ، وتقوم بعمليات واسعه لتمويل الصناعه والزراعه والتجارة . وتركز نصف الموارد والصفقات التى تقوم بها المصارف التجاريه جميعا فى البنوك الرئيسيه الخمسه . وفى عام ١٩١٣ كانت هذه البنوك ممثله فى مجالس إدارات ٢٤٨ شركة مساهمه كبرى . وهكذا نمت الاحتكارات المصرفيه والمجموعات الصناعيه الماليه .

وكانت هذه العمليه الأساسيه التى تحدث فى روسيا فى فترة ماقبل الثورة هى العمليه النموذجيه التى تقع فى غيرها من الدول الرأسماليه . ومن الملاحظ أن أشكال الاتحادات الاحتكاريه ، ومستوى الاحتكار فى القطاعات الأساسيه للاقتصاد ، والاتجاهات الرئيسيه لتطور رأس المال المالى ، متماثلهتقريبا فى روسيا وفى الدول الغربيه .

غير أن الإنجازات التى حققتها روسيا على طريق التقدم الرأسمالى وإن بدت كبيرة للوهله الأولى ، كانت نسبيه فى الواقع . فإذا كانت الفجوة بين روسيا والدول الرأسماليه الأساسيه — الولايات المتحدة وبريطانيا وألمانيا — فى الإنتاج

الصناعي الإجمالي قد ضاقت ، فقد بقيت واسعة رغم ذلك . وكان تخلف روسيا أوضح فيما يتعلق بالإنتاج الصناعي بالنسبة للفرد إذ كانت عائل في هذا الصدد بعض الدول التي كانت تعتبر في ذلك الحين متخلفة نسبيا مثل أسبانيا وإيطاليا واليابان والنمسا والمجر .

وكان التقدم الصناعي ذاته مشوها وغير منتظم . فمعظم المنشآت الصناعية الكبيرة قد قامت في خمسة أو ستة أقاليم في روسيا الأوربية . ومثلت تلك المناطق أكثر من ٧٥ ٪ من إجمالي الإنتاج الصناعي وأكثر من ٨٠ ٪ من الأيدي العاملة في مجال الصناعة . ولم يكن في المساحات الشاسعة الأخرى غير صناعات جنينية . ولم تتمكن الصناعة الروسية في مجموعها في أي وقت من التغلب على التخلف الفني والاقتصادي الذي ورثته من العهد الإقطاعي ، مما جعلها متأخرة عن دول الغرب .

وكانت البقايا العديدة للاقطاع في ريف البلاد هي العقبة الرئيسية في سبيل التنمية والتطور . وليس معنى ذلك أنه لم يحدث تغيير في الزراعة في روسيا بعد ١٨٦١ .

فقد حدث قدر من التقدم ، إذ زادت الأراضي المزروعة زيادة كبيرة ، ولا سيما المساحات المزروعة بالمحاصيل الصناعية . وتحسن التجهيز الفني لبعض المزارع الكبيرة .

وبحلول عام ١٩١٤ كانت روسيا هي أكبر بلاد العالم المصدرة للحبوب ، فمثلت صادراتها نحو ثلث الصادرات العالمية لكن نجاحها في هذا المجال كان أقل نسبيا من نجاحها في مجال الصناعة . وكان إنتشار نظام العزب (اللاتيفونديا) سببا في استمرار بقايا الإقطاع ، وعزز ذلك النظام المطبق في إدارة العزب الذي نشأ بعد قوانين الإصلاح الصادرة في ١٨١٦ . وهنا أيضا سيكون

علينا أن نرجع بصورة إلى الماضي حتى نفهم السبب فى حدة المشكلة الزراعية فى روسيا .

ورغم أن الأوتوقراطيه قد ضحت بنظام القنانة ، إلا أنها بذلت كل ما فى وسعها للإبقاء على أملاك النبلاء ومزارعهم فاحتفظ النبلاء بالجانب الأكبر من الأراضى والغابات والمراعى وغيرها من المرافق الضرورية للزراعة الناجحه . وكان للفلاحين أيضا فى الأراضى التى يزرعونها ماشيتهم وأدوات عملهم .

وحصلوا كذلك على مساحات من الأرض ، غير أن حجم تلك المساحات ونوعها لم يكن يتيح لهم أن يعيشوا حياة لائقه . ولذلك كانوا مضطرين إلى زراعة أراضى السادة إما مقابل أجور نقديه أو مقابل ترتيب ما لإقتسام المحصول غير أنهم كانوا يضطرون فى أغلب الأحيان إلى العمل عن طريق استئجار الأراضى الزراعيه أو غيرها . وبذلك تمكن النبلاء ، باستخدام ما سمى بنظام العمل الخارجى ، من إدارة مزارعهم دون أن ينفقوا أى أموال فيها . وحتى يبقى الفلاحون أكثر خضوعا للنبلاء ، اتخذت الحكومه عدة خطوات لإبقائهم فى المناطق الريفيه ، ولإبطاء عملية إنقسامهم إلى فئات إجتماعيه تبعاً لحجم الملكيه . وساعد على ذلك الاحتفاظ بنظام الشيوع الإقطاعى وتعزيزه بكل ما فيه من بقايا النظم العتيقه ، وعدم التمييز بين ملكية الأرض واستئجارها ، وإعادة تقسيم المساحات المزروعه من وقت لآخر ، وارتباط الفلاحين برقعة الأرض التى يزرعونها ، ووضع القيود على ما يقومون به من بيع أو شراء ، وعلى حقهم فى الإنتقال ، وذلك بالمسئوليه الجماعيه المشتركة لأعضاء المشاع ، والعقوبات البدنيه . وحال ذلك كله دون المبادرات الاقتصاديه للفلاحين والملاك على السواء بل وأدى أيضا إلى استعباد الأيدى العامله وركود الانتاج الزراعى فكانت أساليب الزراعه متخلفه جدا وإنتاجيه العمل شديدة الانخفاض .

ولكن رغم جميع هذه العقبات ، شقت الرأسمالية طريقها سواء فى المزارع الكبيرة أو فى المساحات الصغيرة التى يزرعها الفلاحون . وبالتدريج تحول النظام المؤقت للعمل الخارجى إلى نظام رأسمالى . فبدأ الملاك فى استخدام الأيدى العاملة مقابل أجر ، واستخدام الآلات والأدوات التى يملكونها فى مزارعهم . وبدأ عدد المزارع التى يملكها الفلاحون الافراد فى الزيادة ، وأخذت المزارع المشاعية فى التفكك ، وتحول الموجودون فيها إلى بورجوازية ريفية وبروليتاريا . وتعرض الملاك الذين لم يسايروا الاوضاع الجديدة للإفلاس واضطروا إلى بيع أراضيهم .

غير أن هذه العملية تمت ببطء شديد ولا سيما فى المناطق الوسطى من البلاد . ورغم أن النبلاء كانوا قد فقدوا أكثر من ٤٠ ٪ من أراضيهم بحلول عام ١٩٠٦ فقد بقوا يملكون ٦٢ ٪ من مجموع الاراضى الخاصة .

وظهر عجز حاد فى ملكية الأراضى بين الفلاحين إذ أن المساحات التى حصلوا عليها نتيجة للاصلاح الزراعى إنخفضت إلى النصف بسبب زيادة تعدادهم .

وفى مطلع القرن العشرين أصبح الوضع متفجراً فى الريف . وتمثل جوهر النزاع فى أنه بينما يملك ٢٨٠٠٠ من كبار الملاك ٦٢ مليون هكتار ، أى أن كلا منهم يملك أكثر من ٢٢٠٠ هكتار ، فهناك أكثر من ١٠ ملايين مالك صغير من المجموع الإجمالى البالغ ١٢٫٣ مليون ، لا يصل مجموع ملكياتهم إلى أكثر من ٧٥ مليون هكتار. وكان من اللازم فى حدود الأساليب الزراعية والتكنولوجية السائدة فى ذلك الحين أن يملك المزارع ١٥ هكتارا على الأقل ليضمن الحد الأدنى من الاحتياجات لأسرة الفلاح المتوسطة . ومن ذلك يتضح أن أربعة أخماس الفلاحين كانوا يعيشون تحت الحد الأدنى للاحتياجات الاساسية .

وأدت هزيمة الثورة فى ١٩٠٥ — ١٩٠٧ الى تأخير الوصول إلى حل جذرى

للمشكلة الزراعية ، لكن الحكومة اضطرت مرة أخرى إلى فتح الصمام قليلا لتخفيف التوتر الاجتماعى . فاقترح وزير الداخلية فى ذلك الحين والذى أصبح فيما بعد رئيساً للوزراء ، ب . ا . ستوليبين ، إتباع منهج آخر للسياسة الزراعية . وكانت الفكرة فيه هى انهاء النظام المشاعى وتمليك الأرض للفلاحين كملكية خاصة . كما اقترح تيسير بيع الأرض للفلاحين الميسورين عن طريق بنك الفلاحين — وهى الأراضى التى يرغب النبلاء فى بيعها لأسباب مختلفة — وأخيراً إعادة توطين الفلاحين المتعطشين للأرض من أهالى المناطق المتوسطة فى المناطق البعيدة بإعطائهم أراض من أملاك الدولة . وبذلك حاولت الاوتوقراطية أن تحل المشكلة الريفية دون المساس بأسس نظام الملكية الزراعية ، والاعتماد فى مناطق الريف على الفلاحين الأغنياء .

غير أن هذه الخطة لم تنجح . ففى الفترة بين ١٩٠٦ و ١٩١٥ خرج من النظام المشاعى ٢٫٥ مليون مزرعة تبلغ مساحة أراضيها ١٧ مليون هكتار أى نحو ١٢ ٪ من المساحات المزروعة . وعمد مليون من الملاك الجدد ، معظمهم من الفلاحين الفقراء إلى بيع الأراضى التى حصلوا عليها على الفور . وأبدى معظم الفلاحين عدم رغبتهم فى التخلى عن النظام المشاعى خوفا من أن يزداد وضعهم تدهوراً . وبلغت مساحات الأراضى التى بيعت عن طريق بنك الفلاحين تسعة ملايين ونصف مليون هكتار تمثل ١٠ ٪ من مجموع الأراضى ، ولا تزيد عن قطرة فى بحر الفقر فى الريف . ولم تحقق إعادة التوطن الآمال التى علقت عليها . إذ أن معظم المتوطنين لم يتمكنوا من النجاح فى المناطق الجديدة ، وكان مصيرهم الانضمام إلى صفوف الفقراء فى تلك المناطق أو العودة إلى مواطنهم الأصلية مفلسين إفلاسا كاملا .

ومن الناحية الاقتصادية الخالصة ، أدى الاصلاح الزراعى إلى الاسراع

لدرجة ما بتطور الرأسمالية الريفية وإلى زيادة طفيفة فى الإنتاج الزراعى .

غير أن حدة المنازعات القديمة فى الريف لم تقل . حتى عام ١٩١٧ كانت الملكيات الكبيرة للارض — ملكيات النبلاء والملاك الجدد — تمثل أكثر من ٧٠ ٪ من مجموع الاراضى التى يملكها الأفراد فى روسيا . وبقيت الاراضى التى تملكها الحكومة والأديرة والاسرة المالكة على حالها تقريباً . وأضيفت إلى التناقضات القديمة تناقضات جديدة نتيجة لاحتدام الصراع الطبقى بين الرأسماليين الريفيين وأفقر فئات الفلاحين . وبينما كانت الحكومة تأمل أن يؤدى الإصلاح إلى تخفيف التوتر الاجتماعى فى الريف جاءت النتيجة على العكس تماما .

وكان لسياسة المحافظة بصورة مصطنعة على بقايا الإقطاع فى الريف أثرها على مختلف جوانب الحياة الاجتماعية للبلاد . فكان من نتائجها فى الزراعة انخفاض مستوى الإنتاج والكفاءة ، وأصبح من المحتم أن يتعرض الفلاحون للفشل الدورى للمحاصيل والمجاعة . وكانت آخر هذه الكوارث قبل الحرب عندما فشلت المحاصيل فى عام ١٩١١ وتعرضت مناطق مختلفة يبلغ تعداد سكانها نحو ٣٠ مليون نسمة لمواجهة الجوع وانتشار وباء التيفوئيد .

ورغم أن غلة المحاصيل الاساسية قد ازدادت فإن الزراعة لم تتمكن من تلبية احتياجات الأعداد المتزايدة من السكان واحتياجات الصناعة التى كانت تطلب باستمرار المزيد من المواد الخام . وكانت زيادة الإنتاج بكاملها ترجع إلى استصلاح مساحات جديدة بدأ استغلالها بعد إلغاء القنانة . وانخفضت غلة المحاصيل فى الواقع فى المناطق الوسطى التى تنتشر فيها المزارع الكبيرة .

وترتب على انخفاض مستوى معيشة الفلاحين الذين يشكلون ثلاثة أرباع العدد الإجمالى للسكان ، أن ضاقت السوق المحلية سواء بالنسبة للصناعة أو الزراعة وكان لذلك أثره على رخاء السكان جميعا .

وفى المجال الاجتماعى أدت بقايا الإقطاع إلى تأخر تشكيل الطبقات المعروفة فى المجتمع الرأسمالى . فالفلاحون المتعطشون للارض ، والمستعبدون للملاك ، لم يستطيعوا أن يجدوا أعمالا فى مجال الصناعة . وأفلس عدد كبير من الفلاحين ، وبذلك نشأ فائض غير ظاهر من السكان فى الريف . ووصل عدد العمال العاطلين فى الريف فى عام ١٩١٤ إلى حوالى ٣٠ مليونا .

وتمكن الصناعيون بسبب هذا الفائض من الأيدى العاملة الرخيصة ، من الاقتصاد فى الانفاق على تجهيز المصانع ، مما أدى إلى تباطؤ التقدم التكنولوجى وترتب على ذلك إنتشار الأشكال البدائية القاسية فى استغلال العمال .

وأخيرا وليس آخرا ، كان من أثر بقايا القرون الوسطى فى المجال السياسى أن بقيت البنية العلوية السياسية ذات الطابع الإقطاعى والتى تمثلت فى الاستبداد الروسى . ورغم أن الاوتوقراطيه اضطرت إلى إدخال عدد من الإصلاحات فقد كانت روسيا عند نشوب الحرب العالمية الاولى أشد بلدان اوربا رجعيه من حيث شكل نظامها السياسى .

ورغم أن القيصرية اتخذت خطوة نحو النظام الملكى البورجوازى فى الستينات والسبعينات من القرن الماضى ، فإنها احتفظت بجميع سمـــات النظام الاستبدادى الإقطاعى سواء من الناحية الواقعية أو الناحية القانونيه . وفى ظل أسرة رومانوف كانت دعوى الحق المقدس للقياصرة وعدم جواز المساس به تنتقل من جيل إلى آخر . وقد تمسك آخر القياصرة الروس ، نيقولا الثانى ، بهذه القاعدة باصرار . وجاء فى بيان ارتقائه العرش قوله « إننا قد تلقينا من الله سبحانه وتعالى سلطه حكم شعبنا ، وسوف نحاسب بين يديه على مصائر الامبراطوريه الروسية » .

غير أن القيصرية التى أفزعها حجم الثورة الروسية الاولى لجأت إلى المناورة .

فبينما اعتمدت فى المجال الاجتماعى على الفلاحين الاغنياء . أدخلت فى المجال السياسى الاجهزة النيابية لمحاولة تخفيف التوتر . فأنشأت مجلس الدوما المنتخب ، وأصدرت تنظيما جديداً لمجلس الدولة بحيث يصبح بعض أعضائه منتخبين . وأصبح لكل من المجلسين سلطة تشريعية رسمية ، وكان وضعهما أشبه بالبرلمانات الغربية التى تتألف من مجلسين . لكن هذا التشابه لم يكن أكثر من تشابه ظاهرى .

فقد احتفظ القيصر بعد الثورة بالسلطة الكاملة ، وكان له الرأى الأخير فى إصدار أى قانون ، كما كانت له سلطة تنفيذية غير محددة . فهو الذى يعين الوزراء وهم مسئولون أمامه وحده . واستمر القانون ينص كما كان الحال فى الماضى على « أن امبراطور روسيا بأسرها يملك سلطة عالية مطلقة ، وقد قضى الله تعالى بالخضوع لسلطته لا بالخوف فحسب بل وبالإيمان » .

ولم يكن الانتخاب للاجهزة النيابية العليا عاما ولا مباشراً ولا متكافئاً . فنصف أعضاء مجلس الدولة يعينهم القيصر والنصف الآخر ينتخبه رجال الدين ، وأجهزة الحكم المحلى (الزمستفو) وجمعيات النبلاء ، واتحادات أصحاب الأعمال ، والجامعات وأكاديمية العلوم .

وحرمت فئات عديدة من السكان من حق انتخاب مجلس الدوما ، من بينها كل من يقل عمره عن ٢٥ سنة ، والنساء ، والطلبة ، والعسكريون ، والاهالى المترحلون، ومن إليهم . وكان الانتخاب يتم على عدة درجات . فهناك نظام من درجتين لكبار الملاك والرأسماليين ، ونظام من ثلاث للعمال ، ونظام من أربع درجات للفلاحين والطبقات المختلفة تختار أعداداً مختلفة من الناخبين . وفى آخر الامر كان

الصوت الواحد للمالك الكبير يساوى صوتين من أصوات الرأسماليين ، و ٢٦٠ صوتا للعمال و ٥٥٠ صوتا للفلاحين .

وعندما رأى القيصر أن مجلس الدوما لم يعد خاضعا بما فيه الكفاية ، لم تتردد السلطات فى حله (كما حدث مع مجلسى الدوما الاولين فى ١٩٠٦ و ١٩٠٧) وفى تغيير قانون الانتخاب . وقد ظهر موقف الحكومة من « التمثيل الشعبى » بوضوح فى كلمة قالها أحد رؤساء الوزارات ، ف . كوكوستيف ، إذ قال فى إحدى جلسات مجلس الدوما بصراحة : « ليس لدينا فى هذا البلد برلمان ، ولله الحمد ! » .

ولم يكن لدى روسيا أيضا شىء من الحريات الديموقراطية الاساسية . وكان بيان ١٧ أكتوبر ١٩٠٥ الذى انتزعته الثورة من القيصر يمنح الرعايا الروس عدداً من الحقوق المدنية من الناحية الشكلية . غير أن البيان بقى من الناحية الفعلية مجرد قصاصة ورق . وساد البلاد الحكم البوليسى التعسفى .

وهكذا كانت روسيا عند بدء الحرب العالمية الأولى تموج بالتناقضات العميقة التى مزقتها . وهى تناقضات نشأت من بقايا الإقطاع والتطور الرأسمالى السريع على السواء . وبقيت القضايا التى لم تحل للثورة البورجوازية الديموقراطية من المسائل ذات الأولوية المتقدمة حتى فبراير ١٩١٧ بعد أن ازدادت حدة .

ولكن بات من الواضح بصورة متزايدة أن انتصار تلك الثورة ذاته لن يحل المسائل الاساسية المتعلقة بمصالح الجماهير الشعبية العريضة . إذ كانت التناقضات التى صحبت دخول البلاد العصر الإمبريالى قد تفاقمت ، وازدادت حدة المنازعات الاجتماعية بحيث أصبح من المتعذر حلها بثورة بورجوازية من أعلى . ولم يكن فى الوسع أن تحل مشاكل البلاد بصورة جذرية إلا عن طريق ثورة شعبية حقا ، ثورة اشتراكية . وكان لدى روسيا الحد الادنى من الشروط المادية والتقنية

اللازمة لذلك، ومن بينها الإنتاج الآلى الكبير، ومجموعة من المؤسسات المصرفية، وشبكة واسعة من الطرق، وجهاز متطور نسبيا للمحاسبة والتوزيع، أقامته الدولة والاحتكارات. كما أن الترابط الاجتماعى والسياسى لمختلف القوى فى روسيا كان قد قطع شوطا لا بأس به. ولم يعد هناك شك فى أنه يمكن وينبغى للثورة البورجوازية أن تتطور إلى ثورة اشتراكية.

هرم آيل للسقوط :

ظهرت المنازعات الحادة عميقة الجذور المميزة لروسيا فى مطلع القرن العشرين على السطح فى صورة صراع متعاظم بين مجموعة واسعة من القوى الاجتماعية التى تشكلت فى طبقات ومعسكرات سياسية. فكيف كان التركيب الاجتماعى للبلاد قبل تلك الفترة العاصفة من تاريخها، وماذا كانت أجزاؤه الرئيسية ؟

وكان المجتمع فى روسيا، شأنه فى أى بلد رأسمالى، يتألف من ثلاث طبقات رئيسية : البورجوازية، والبورجوازية الصغيرة، والبروليتاريا. غير أنه ينبغى للقارىء أن يتذكر أن هذه الفئات الاجتماعية الموجودة أيضا فى العالم المعاصر كانت مختلفة بعض الشيء فى مطلع القرن العشرين. فقد حدثت تغييرات هامة منذ ذلك التاريخ فى مستوى المعيشة وفى التركيب الفكرى والنفسى لتلك الطبقات. ومن ثم فإن من يعيشون فى أيامنا هذه ممن ألفوا الموظفين والعمال الحاليين، والمزارع المزودة بمختلف الآلات الزراعية، وتوافر المديرين الاكفاء فى مكاتب الشركات الضخمة وما إلى ذلك، يصعب عليهم أن يتصوروا الأنماط الاجتماعية فى روسيا فى مطلع هذا القرن.

ومع ذلك فإن جوهر الطبقات الأساسية للمجتمع الرأسمالى بقى على حاله فى الجوانب الرئيسية. فما زال العمال الذين يعملون مقابل أجر ينتجون فائض

القيمة ، وما زال كبار أصحاب الأعمال والبورجوازية المتوسطة يحصلون على ذلك الفائض، بينما يدير صغار الملاك أو صغار أصحاب الأعمال مزارعهم أو أعمالهم معتمدين على جهودهم الذاتية .

وكان هذا هو الوضع فى روسيا فى بداية القرن العشرين ، مع فارق واحد وهو أن تكوين الطبقات الأساسية للمجتمع الرأسمالى لم يكن قد استكمل بعد . وكانت الحدود الطبقية « مهزوزة » جداً ، والفوارق معقدة ومضطربة نتيجة للتقسيمات الفئوية . وإلى جانب الفئات والمجموعات المعتادة فى المجتمع الرأسمالى الحديث كانت روسيا تحتفظ حتى عام ١٩١٧ بالدرجات الموروثة من العهد الإقطاعى ، كتقسيم الناس إلى نبلاء وتجار وفلاحين وماإلى ذلك .

ونظراً لان تطور الرأسمالية لم يكن عميقا بدرجة كافية مما أدى إلى ظهور أنواع إنتقالية عديدة ، كان الهرم الاجتماعى المميز للمجتمع الرأسمالى فى روسيا أقل ترابطا مما هو فى أى مكان آخر . وكانت عناصره غير متماثلة داخليا . ولم يكن الهيكل الاجتماعى بأسره قادراً على الصمود لضغط الصراعات الداخلية .

كانت قاعدة الهرم تتألف من البروليتاريا ، وهى طبقة العمال الذين يعملون مقابل أجر ، محرومين من وسائل الإنتاج ، والذين يكسبون رزقهم بكامله أو فى معظمه عن طريق بيع عملهم . وفى عام ١٩١٤ كان عدد العمال يبلغ ٢٠ مليونا (أى حوالى ٣٣ مليونا إذا حسب أفراد أسرهم) وكانوا بذلك يمثلون نحو ثلث الأهالى البالغين والذين يعملون ويكسبون . وكانت روسيا فى هذا الصدد قريبة من مستوى فرنسا ، ومتأخرة قليلا عن ألمانيا حيث كان العمال يمثلون حوالى نصف الأهالى الذين يعملون ويكسبون ، ومتأخرة كثيراً عن بريطانيا والولايات المتحدة حيث تمثل البروليتاريا ثلثى الأهالى العاملين . غير أن هذه الفجوة تتضاءل إذا استبعدنا سكان المستعمرات الروسية .

وكذلك لم تكن البروليتاريا الروسية متجانسة سواء من ناحية الأصل ، أو التركيب القومى ، أو التعليم ، أو المهارات ، أو الحالة المالية . وليس ذلك غريبا فالطبقة العاملة فى المجتمع الرأسمالى محاطة بعديد من الفئات الانتقالية التى تكون مصدراً لزيادة صفوفها . وفى ظروف الانتعاش الاقتصادى فى روسيا كان لابد أن يتخذ هذا التطور أبعاداً واسعة . وقد وصل عدد العمال إلى الضعف خلال فترتى الازدهار الصناعى الأخيرتين وحدهما .

وانضم إلى البروليتاريا ، إلى جانب أسر الطبقة العاملة ، أصحاب الحرف والمهن اليدوية ، وعلى الاخص الفلاحون الذين أصابهم الإفلاس . واحتفظ بعض العمال القادمين من المناطق الريفية بارتباطهم بالارض وبالمزارع بصورة أو بأخرى . وكان للكثير منهم أسر أو أقارب فى الريف . وكان ذلك كله مجالا لإيجاد عقلية التملك الخاص ونفسية البورجوازية الصغيرة بين بعض فئات العمال ، مما عاق تنظيمهم وتشكيل وعى بروليتارى ذى صبغة طبقية .

ورغم ما قد يبدو فى ذلك من تناقض، فإن هذا الوضع الاجتماعى فى ظروف روسيا حول تلك العوامل السلبية بصورة جدلية إلى مصدر إضافى لتأثير البروليتاريا على جموع الفلاحين ، وأداة لتعزيز دورها القيادى فى حركة التحرير .

واحتلت البروليتاريا الصناعية مكانة خاصة بين العاملين مقابل أجر . وكانت تتألف من العمال المشتغلين فى الصناعات الكبيرة والنقل والمواصلات ، وبلغ عددهم نحو أربعة ملايين ونصف مليون فى عام ١٩١٧ . وكانت تلك هى أنضج فئات الطبقة العاملة سواء من الناحية الاجتماعية أو السياسية . وكان معظمهم من العمال المهرة الذين لا يستغنى عنهم الإنتاج الصناعى الكبير .

ويمكن أن يقال إنهم ينحدرون من أصول عمالية ، لانه فى بداية القرن

العشرين كان نصف من ينضمون إلى صفوفهم من أبناء أسر الطبقة العاملة . وأكثر من ٩٠ ٪ من العاملين فى الصناعات التحويلية كانوا يعملون بصفة دائمة فى المصانع . وبالتالى كانوا عمالا حقيقيين متفرغين وليسوا أنصاف عمال وأنصاف فلاحين كما يميل بعض المفكرين الغربيين المتخصصين فى الشؤون السوفييتية إلى تصويرهم .

وكان الإنتاج الكبير يجتذب العمال من جميع أنحاء البلاد ، ويوحدهم ، ويدعم صفوفهم ، ويوسع نظرتهم . وكان هذا العمل يتطلب قدراً أكبر من معرفة القراءة والكتابة ، وله مطالب أكبر من الناحيتين المادية والذهنية . وكان المعدل الإجمالى لمعرفة القراءة والكتابة فى روسيا منخفضا جداً ، فلم يكن يعرف القراءة والكتابة بين مجموع السكان أكثر من ٢٠ ٪ فى بداية القرن العشرين . لكن نسبة معرفتهما بين العمال الذكور كانت تبلغ حوالى ٦٠ ٪ ، وتبلغ النسبة بين النساء العاملات ٣٥ ٪ . وفى سنة ١٩١٧ كان ٨٠ ٪ من العمال الذكور وأكثر من ٤٠ ٪ من النساء العاملات يعرفون القراءة والكتابة . وضعفت بالتدريج ارتباطات البروليتاريا بالارض . ومن الامور ذات الاهمية فى هذا المجال أن نحو ٦٠ ٪ من مجموع المصانع تقع خارج المدن ، ويرجع ذلك إلى سياسة الحكومة التى بقيت حريصة لفترة طويلة على إبقاء الفلاحين فى مناطق الريف بالقوة . غير أنه لم يكن ثمة سبيل للوقوف فى وجه التطور ، وإذا كان الفلاحون ممنوعين من التوجه للصناعة فإن الصناعة نفسها اتجهت إليهم .

والبروليتاريا هى الطبقة التى تخلق القيم المادية الحيوية للمجتمع ، وهى فى الوقت ذاته أشد الطبقات تعرضا للاستغلال وحرمانا من وسائل الإنتاج . ووضعها الاجتماعى يدفعها إلى النضال من أجل التحرر . وكان ذلك الصراع مريراً فى روسيا نظراً لقسوة الظروف التى تعيش فيها الطبقة العاملة . فكان يوم

العمل دائما طويلا جداً ، وظروف الحياة والعمل أسوأ بكثير منها فى الدول الرأسمالية الرئيسية . وذلك إلى أن الاجور أدنى بعدة مرات .

ولا شك فى أن العمال حققوا بعض التحسن فى ظروف حياتهم من خلال الكفاح الشاق ولا سيما نتيجة لثورة ١٩٠٥ — ١٩٠٧ . إذ نقصت ساعات العمل ، وارتفعت الاجور بما يقرب من ٢٠ ٪ ، وطبق التأمين ضد العجز والحوادث منذ عام ١٩١٢ . لكن إرتفاع الاسعار قبيل الحرب العالمية الأولى لم يلبث أن التهم الزيادة فى الاجور . وانتشر العمل ساعات إضافية نظراً للبدء فى الاستعداد للحرب ، وبذلك عادت ساعات العمل الطويلة مرة أخرى . وعاد الرأسماليون الذين شفوا من خوفهم من الثورة إلى الهجوم على المكاسب الاخرى للعمال .

وازداد وضع العمال سوءاً نتيجة للكبت الشامل للجماهير العاملة ، والذى تحول فى ظل النظام الاستبدادى إلى سيطرة بوليسية مشينة وتحكم عشوائى . وفرضت السلطات على النقابات التى تشكلت فى سنوات الثورة وعلى الصحف العمالية الشرعية إضطهاداً وحشياً .

وكان هناك قانون قدر صدر فى عام ١٩٠٥ يحظر الملاحقة الجنائية بسبب المشاركة فى الإضرابات الاقتصادية ، ولكن أى إضراب كان يعامل فى التطبيق باعتباره جريمة ضد النظام القيصرى . وكثيرا ما كانت الاضرابات تقمع بالقوة المسلحة وقد ارتاعت روسيا بأسرها لمذابح العمال التى وقعت فى مناجم الذهب فى منطقة لينانى بسيبيريا فى عام ١٩١٢ .

وكان بعض أفراد الاسرة المالكة من حملة أسهم هذه الشركة التى تعمل فى استخراج الذهب . وقد بدأت الاضطرابات عندما دعيت القوات لإطلاق النار

على مظاهرة سلمية للعمال المضربين الذين كانوا يحتجون لأن الإدارة تبيع لهم لحوما فاسدة . وقتل فى تلك الاضطرابات أو أصيب أكثر من ٥٠٠ شخص . ورداً على الاحتجاجات العامة قال وزير الداخليه أ . ما كاروف بصراحة « لقد فعلنا ذلك فى الماضى وسنفعل ذلك فى المستقبل » .

وكان من أثر ذلك أن واجهت البروليتاريا عدوين : مستغليها المباشرين والنظام الاستبدادى الذى يحميهم ويحمى نفسه بوسائل وحشية . وفى ظروف كهذه يتخذ كل إضراب ، حتى إذا كان إضرابا إقتصاديا ، طابعاً سياسياً ثورياً بالضرورة . ونظراً لقسوة الظروف الاقتصادية وما صحبها من افتقار إلى الحقوق السياسية والمدنية ، ونظراً إلى أن الفئة المميزة من أرستوقراطية الطبقة العاملة كانت ضئيلة جداً (لم تكن تتجاوز فى روسيا ٤ ٪ من العمال فى مقابل ٩ ٪ فى ألمانيا و ١٥ ٪ فى بريطانيا) فقد مهد ذلك كله لظهور روح ثورية لدى الطبقة العاملة الروسية أقوى منها لدى العمال فى البلاد الأخرى .

ويميل المراقبون والباحثون الاجانب ، إما بسبب معلوماتهم السطحية عن تاريخ روسيا ، أو بسبب رغبتهم فى تقديم تحليل يتفق مع النظرية التى ترى أن ثورة أكتوبر لا تعدو أن تكون حادثا وقع بالصدفة ، إلى ابراز « جهل » العمال الروس . فهم يؤكدون أن مستواهم الثقافى كان منخفضا ، وأن تنظيمهم المبنى لم يكن ملائما .

ولا شك فى أن البروليتاريا الروسية حرمت من فرصة الاستخدام الكامل لمميزات الحضارة التى ألفها العمال فى الدول الأخرى ، وإن كانت هناك بعض المبالغة فى تخلفهم الحضارى . غير أن العمال الروس خاضوا خلال فترة من الزمن قصيرة نسبيا غمار مدرسه ممتازة للصراع الطبقى تمكنوا خلالها من اختبار العناصر الاساسية فى النظرية الماركسية الثورية والإيمان بها . وكان تركز العمال فى المصانع

الكبيرة من العوامل التى ساعدت على تنظيمهم وترابط صفوفهم . وترتب على ذلك ظهور عدد من التنظيمات العمالية القاعدية قبيل ثورة أكتوبر ١٩١٧ وكان عمال روسيا يسبقون البروليتاريا فى أى بلد آخر من حيث نضجهم النضالى وخبرتهم بالكفاح الثورى . ففى العقد الأخير قبل الثورة قاموا بتنظيم إضرابات لم يسبق لها مثيل . ويظهر من البيانات الرسمية غير الكاملة أن عدد المضربين فى الفترة بين ١٩٠٥ و ١٩٠٧ تجاوز ٤٫٧ ملايين ، كما بلغ عددهم فى الفترة بين ١٩١٢ و ١٩١٤ ثلاثة ملايين على الأقل . وكان المستوى المرتفع للنشاط السياسى للمضربين داعياً إلى الدهشة . ففى عام ١٩٠٥ قام ما يقرب من نصف المضربين بنشاط صناعى لأسباب سياسية . وارتفع الرقم فى ١٩٠٧ الى ٧٣ ٪ ، ووصل فى عام ١٩١٢ الى ٨٠ ٪ .

وهناك من الناحية الموضوعية إتجاهان يمكن أن تسير فيهما حركة الطبقة العاملة فى ظل الرأسماليه : إما تحسين ظروف العمال فى إطار النظام القائم ، أو خوض غمار معركة حاسمه ضد هذا النظام . وقد ساد الاتجاه الثانى الثورى، بشكل قاطع فى روسيا . وتبين أن البروليتاريا الروسيه فى مجموعها معاديه للنزعات الإصلاحيه والقومية . ويرجع الفضل فى ذلك إلى حد كبير الى حزب لينين البلشفى الذى كان له وضع قيادى فى حركة الطبقة العاملة الروسية . وكان ذلك هو العامل الذى مكن الطبقة من أن تصبح القوة الثورية الرئيسية فى المجتمع الروسى ، والنضال من أجل الديموقراطية والاشتراكية بشكل ثابت ودؤوب ، وأن تقود الجماهير العاملة والمستغلة الأخرى .

وكان يمثل الجزء الأوسط من الهرم الاجتماعى فى روسيا فئة يكاد يبلغ تعدادها ١٠٠ مليون نسمة من البورجوازية الصغيرة ، تمثل نحو ٦٠ ٪ من مجموع

السكان، وكان للفلاحين فيها وضع خاص يرجع إلى عددهم (مايقرب من ٨٥ مليونا) وإلى الدور الذى يلعبونه فى حياة البلاد .

والفلاحون من حيث منشأهم هم من الطبقات التى تظهر مع المجتمع الإقطاعى ولكنهم فى عشية الثورة لم يكونوا متجانسين سواء من حيث حجم ملكيتهم أو من حيث وضعهم الاجتماعى . ففقراء الفلاحين كانوا يشكلون حوالى ٦٥ ٪ من مجموع الأسر العاملة فى الزراعة . وكان هؤلاء من أبناء البروليتاريا الريفية وأشباههم من العمال الذين يعملون مقابل أجر والذين يملكون فى الوقت نفسه قطعة صغيرة من الأرض . فهم يقومون بزراعة أرضهم ولكنهم لم يعودوا يستطيعون الوفاء باحتياجاتهم دون بيع قوة عملهم . وهؤلاء هم أقرب الناس إلى وضع الطبقة العاملة . وإذا ضم عددهم إلى عددها فإنهم يمثلون أكثر من نصف التعداد الإجمالى للسكان .

وكان ما يعرف « بالفلاحين المتوسطين » يشكلون فئة بين ، والسمة المميزة لهم أنهم كانوا قادرين على كسب رزقهم من الأرض التى يملكونها . غير أن وضعهم لم يكن ثابتاً ولا مستقراً على الإطلاق . فسيف الخراب معلق فوق رقابهم على الدوام ، ولاسيما بعد تكرار فشل المحاصيل فى روسيا . وإن كانوا فى السنوات الطيبة لم يستطيعوا أن يحصلوا على بعض الإنتاج الفائض ، وقد يستطيع الأكفاء منهم الإنضمام إلى صفوف المزارعين الرأسماليين أو الكولاك .

وكان الرأسماليون الريفيون لا يمثلون غير نسبة ضئيلة من الناحية العددية — حوالى ١٥ ٪ من مجموع الحيازات ، لكنهم يمثلون أكثر من نصف الأراضى والماشية التى يملكها الفلاحون ، والأغلبية الكبرى من الآلات الزراعية ، وعمل الجانب الأكبر من العمال المعتمدين على الأجر . وقد كانت هذه فى الواقع فئة بورجوازية وإن كانت ذات طابع فلاحى ولم تكن هناك روابط قوية تجمع

بينهم وبين المزارعين الرأسماليين سواء من حيث نظامهم الاقتصادى أو تكوينهم الاجتماعى . فالكولاك فى استغلالهم لفقراء الريف يعتمدون ، إلى جانب الوسائل الرأسمالية الخالصة ، إلى استخدام العمال المستعبدين على نطاق واسع ، وإلى الربا ، وهما سمتان تميزان الرأسمالية فى مراحلها المبكرة فى القرون الوسطى .

ونظراً لانتشار الملكيات الإقطاعية كان هناك عجز ساد فى الأراضى ولما كان الفلاحون فى مجموعهم لم يحصلوا أبداً على حقهم الكامل كطبقة ، فقد بقى ملاك الأراضى الذين تدعمهم الأوتوقراطية العدو الرئيسى للأغلبية الساحقة من الفلاحين . وفى الوقت ذاته كان الصراع دائراً بين المجموعتين المتعارضتين فى الريف . وازداد هذا الصراع حدة واتخذ أبعاداً واسعه خلال سنوات الإصلاح الذى طبقه « ستوليبين » . وكانت فئات أهالى الريف القريبة من البروليتاريا فى وضعها الاجتماعى تشكل أغلبية واضحــة ، غير أن أوضاعها السياسية لم تكن مستقرة ، وذلك بسبب الطابع الاجتماعى المزدوج للفلاحين . فهم عمـال وملاك فى الوقت ذاته ، ولذا كانوا يتأرجحون دائماً بين البروليتاريا والبورجوازية .

وكان الفلاحون فى حاجة إلى خبرة سياسية يكتسبونها بأنفسهم حتى يتمكنوا من اتخاذ موقف واضح واختيار حليف فى كفاحهم من أجل الأرض والحقوق المدنية والسياسية ، وبالنسبة لفئاتهم البروليتارية وشبه البروليتارية من أجل إعادة تشكيل المجتمع على أسس اشتراكية . ولعب اصلاح ستوليبين دوراً هاماً فى عملية تقرير المصير هذه . فقد بين هذا الإصلاح أن جمع الآمال المعقودة على حل المشكلة الزراعية « من أعلى » مقضى عليها بالفشل . وأدت التطورات التالية إلى إقناع الفلاحين بأنه يتعذر تحقيق أمانيهم حتى عن طريق ثورة بورجوازية ناجحة . وتبين أن ثورة أكتوبر الاشتراكية هى الثورة الوحيدة القادرة على حل المسألة الزراعية حلا جذرياً .

وإذا كانت الفئات الديموقراطية غير البروليتارية من أهالى المدن أقل عدداً من الفلاحين ، فإنها رغم ذلك تشكل فئة اجتماعية غير قليلة الأهمية . فهى تضم أصحاب الحرف وصغار التجار وموظفى المكاتب والطلبة والمثقفين الكادحين . وكان عددهم يبلغ نحو ١٤ مليوناً أى ١٠٪ من مجموع السكان فى عام ١٩١٧ . وكان أصحاب الحرف والتجار فى الغالب قريبين من الفلاحين « المتوسطين » فى وضعهم الاجتماعى . غير أنهم كانوا يمرون بأوضاع مالية صعبة ، فكان دخلهم يقل عن دخل عمال الصناعة المهرة . وكان موظفو المكاتب والمثقفون ، فيما عدا القطاع الأعلى الميسور ، يشغلون مكانة خاصة ، ووضعهم الاقتصادى يجعلهم أقرب إلى العمال ، ولكن أصلهم وأسلوب حياتهم وتكوينهم النفسى يجذبهم نحو الفئات البورجوازية .

وأدى هذا الازدواج إلى المواقف السياسية المتناقضة غير المستقرة لتلك الفئات عن السكان ، وكانت البروليتاريا والبورجوازية فى صراع مستمر للتأثير عليها . غير أن المثقفين الديموقراطيين ذوى الاتجاهات التقدمية ربطوا فى الوقت ذاته مصيرهم بمصير حركات التحرر والحركات العمالية .

وأخيراً فإن قمة الهرم تتألف من الطبقات المالكة والتى يبلغ تعدادها حوالى ٣٥ مليون نسمة ، أى ٢٠٪ من مجموع السكان . ولما كانت الرأسمالية قد تقدمت بمعدل سريع جداً وتشكل المجتمع البورجوازى خلال فترة قصيرة نسبياً ، فإن هذه الطبقات أيضاً كانت تتألف من وحدات غير متجانسة .

وكانت البورجوازية التجارية والصناعية قد انتزعت منذ أمد طويل المواقع الرئيسية المسيطرة فى الحياة الاقتصادية . وكانت القوة الرئيسية للطبقة فى يد مجموعة صغيرة جداً من كبار الرأسماليين التى يتجسد فيها اندماج رأس المال الصناعى ورأس المال المصرفى والتى تشكل الأوليجاركية المالية . وتضم هذه الفئة أيضاً

أغنى أفراد الارستوقراطية من ملاك الأراضى والأغنياء المحدثين من رجال الصناعة والمصارف .

ولم يكن هؤلاء جميعاً قادرين على ملاحقة العصر واكتساب الصفات العملية اللازمة للنهوض بمطالب العصر الجديد . وبرز فى هذا المجال الأفراد المنحدرون من أسر الموظفين الحكوميين والمثقفين الفنيين ، وكان من الطبيعى أن يمثلوا أنشط أقسام الصفوة الرأسمالية الجديدة . وإذا كانوا لا يملكون رؤوس أموال خاصة بهم فقد كانوا يملكون الخبرة والاتصالات بمجال الأعمال والدوائر الحكومية . ولم يلبثوا أن جمعوا ثروات على وجه السرعة ، وخرج من بين صفوفهم عددا من كبار رجال الأعمال من الطراز الحديث .

غير أن الغالبية من البورجوازية الكبيرة والبورجوازية المتوسطة التجارية والصناعية كانت تحت سيطرة الرأسماليين التجار القدامى الذين احتفظوا بتحيزاتهم الفئوية القديمة وبتنظيمهم إلى حد ما ، وتحت سيطرة بعض من جاءوا من أصول فلاحية أو من البورجوازية الصغيرة فى المدن . وكانت الأغلبية الواضحة بينهم من التجار . وإذا كان الرأسماليون الروس يميلون فى المجال الاقتصادى لاستخدام الأشكال الفجة للاستغلال ، فقد كانت السمات المميزة لنظامهم السياسى هى روح المحافظة والاعتماد إلى أقصى حد على استمرار الأوضاع القائمة .

وتنبع هاتان السمتان من عدد من العوامل ، فى مقدمتها الظروف التى تشكلت فيها طبقة أصحاب الأعمال فى روسيا . فمنذ الأيام الأولى لنشأة البورجوازية كانت تعتمد اعتماداً كبيراً على النظام الاستبدادى الذى يضمن للرأسماليين أرباحا عالية عن طريق إعطائهم العقود الحكومية ، والدعم ، والضمانات ، والحماية من المنافسة الأجنبية بفرض الرسوم الجمركية العالية . كما لجأ الرأسماليون إلى الأوتوقراطية لتحميهم من حركة الطبقة العاملة المتعاظمة . وأدى هذا الوضع إلى

« الطفولة » الاجتماعية للبورجوازية ، وأبطأ من تكوين صفوفها كطبقة - ولفترة طويلة اكتفى أفراد فئة رجال الأعمال بأن يكونوا مجرد مستشارين تدعوهم الحكومة القيصرية للتشاور معهم بشأن الجوانب المختلفة للسياسة الاقتصادية أما الاستراتيجية الاقتصادية فكان يحددها النظام الأوتوقراطى كما كان الحال فى الماضى .

ولما أصبح واضحاً بجلاء متزايد أن القيصرية تعوق التطور الاقتصادى وأنها غير قادرة على مواجهة الحركة المتعاظمة للطبقة العاملة ، بدأت المعارضة تنمو بين صفوف البورجوازية ، وبدأت فى المطالبة بنصيب فى إدارة شؤون البلاد .

وعندما اندلعت الحرب العالمية الأولى كان قد تحقق قدر كبير من التقدم فى تعزيز الكيان الطبقى للبورجوازية وتنظيمها السياسى . إذ كان قد نشأ نحو ١٤٠ اتحاداً لأصحاب الأعمال تمثل مصالح الصناعات المختلفة والمناطق الصناعية الرئيسية ، كما بذلت محاولات لإنشاء اتحاد عام لأصحاب الصناعات . وتجاوز العدد الكلى لهذه التنظيمات ١٧٠ جهة فى أوائل عام ١٩١٧ . وكانت شبكتها تغطى جميع القطاعات الرئيسية فى الاقتصاد وجميع المناطق الصناعية فى البلاد . وأصبحت البورجوازية الروسية أكثر نضجا كطبقة ، وتجلى ذلك فى سعيها لتطبيق بعض الأساليب المستمدة من ترسانة أحدث الأسلحة الرأسمالية النمطية فى سعيها لتعزيز سيطرتها . وكان من مظاهر ذلك ، البرامج التى وضعتها الاحزاب السياسية والتى تشكل أكثرها فى سنوات الثورة الروسية الأولى . ولكن جملة القول أن التناقض بين القوى الاقتصادية النامية للبورجوازية والاحتفاظ بالسلطة الكاملة بين يدى القيصرية وأشد الفئات رجعية بين الملاك ، لم يؤد إلا إلى زيادة عمق « الأزمة عند القمة » .

وكانت الطبقة الحاكمة الأخرى هى النبلاء أصحاب الأراضى . وإذا كانوا قد فقدوا جزءا غير قليل من أملاكهم بعد إصلاحات عام ١٨٦١ ، فقد كانوا ما زالوا يمتلكون قوة اقتصادية وسياسية كبيرة . ولاشك فى أنهم لم يعودوا المالكين الوحيدين للمزارع الكبيرة منذ بداية القرن العشرين . فمن بين الأسر الـ ٢٨ ألفا التى تملك الأرض كان نحو الثلث مؤلفا من يطلق عليهم « الملاك الجدد » والذين جاءوا من صفوف التجار أو الفلاحين . ومع ذلك فإن قيمة الملكيات الزراعية الكبيرة التى يحوزها النبلاء كانت تتجاوز مجموع رؤوس أموال الشركات المساهمة فى البلاد بنسبة ٥٠٪ .

وكان معظم الملاك يستخدمون وسائل متخلفة للزراعة . وكانت الإنتاجية منخفضة ، وكذلك الدخل الناشىء من الملكية الزراعية . غير أن الملاك . ولاسيما الفئة العليا الغنية منهم ، أسهمت بدور فى النشاط التجارى والصناعى . وقد حققوا أرباحا جمة من بيع الأراضى أو تأجيرها أو رهنها . وفى عام ١٩١٦ كانت أموال الرهون التى دفعت لملاك الأراضى منذ نهاية القرن التاسع عشر قد وصلت إلى رقم فلكى بمقاييس تلك الأيام هو ٣٢٠٠ مليون روبل ، ووصلت الديون غير المسددة إلى حوالى ١٢٠٠ مليون روبل . ويظهر من هذا الوضع أن مصالح كبار الملاك والرأسماليين كانت مرتبطة ارتباطا وثيقا .

غير أن ملاك الأراضى لم يستخدموا من تلك الأموال غير جانب ضئيل نسبيا فى أغراض إنتاجية : وقد تميز العقد الأخير لحكم الارستوقراطية الروسية بعاصفة من الإسراف والبذخ تجاوزت الفخامة والترف الذين تميز بهما القرن الثامن عشر . إذ كان الريع ، وهو الدخل الطفيلى الذى يحصل عليه كبار الملاك ، قد زاد زيادة ضخمة ، وكان لابد أن يؤثر ذلك على التركيب الاجتماعى للطبقة الحاكمة .

وانضم بعض الملاك الذين سلكوا السبيل الرأسمالى إلى معسكر البورجوازية بسبب آرائهم السياسية ، ولكن أغلبيتهم العظمى ، وعلى الأخص النبلاء الذين يملكون المساحات الشاسعة ، لم يغيروا فى أى وقت مواقعهم الطبقية ، رغم اقترابهم من الرأسماليين من الناحية الاقتصادية . وكانت الملكيات الكبيرة لكل من النبلاء والملاك « الحدثين » تعتبر من الناحية الاجتماعية الاقتصادية من ركائز النظام الاوتوقراطى ومن العقبات الأساسية فى طريق تقدم البلاد . ورغم أن النبلاء الذين يملكون المزارع الشاسعة يشكلون أقلية واضحة بين الطبقات العليا المالكة، إلا أنهم كانوا أقوياء بفضل ارتباطهم بالأسرة المالكة - فهم فى مقدمة رجال الامبراطورية ، وهم كبار موظفى الدولة ، كما أنهم أقوياء بتنظيمهم القوى وسيطرتهم على أجهزة الحكم المحلى والحكم الذاتى .

ولذا فإن الإقتصاد المتضارب المتناقض الذى كان قائما فى روسيا قبل الثورة . قد صاحبه تركيب اجتماعى لا يقل عنه تشابكا وتعقيدا . وكانت الاوتوقراطية القيصرية التى وصفها كثير من معاصريها بأنها « صرح شرقى » أشبه ما تكون بقلعة من قلاع القرون الوسطى ذات أسوار منيعة وأبراج عالية وأقبية عميقة يحتفظ فيها أصحابها بالبارود . وكان يمكن لأبسط شرارة أن تفجر البناء كله وتحوله إلى شظايا . وكانت روسيا فى مطلع القرن العشرين تعيش على توقع ذلك الانفجار .

سجن الشعوب :

كانت الخلافات القومية من العناصر البارزة فى مجموعة التناقضات التى تمزق المجتمع الروسى . وقد كانت تزيد الوضع المتوتر تفاقما ، وأضفت على حركة التحرر قدراً كبيراً من الاتساع والعمق .

وكان لمشكلة القوميات دور خاص فى روسيا . فالدول التى نشأت فى الغرب نتيجة للثورات البواجوازية كانت كقاعدة عامة متجانسة من الناحية القومية . وفى تلك الدول تحولت مشكلة القوميات مع الزمن إلى مشكلة المستعمرات . وكان من السمات المميزة لمستعمرات الدول الغربية أنها تقع على مسافات بعيدة عن الدول الاستعمارية ، وأنها معزولة عنها بصورة مصطنعة نتيجة لحاجز اللون . أما فى روسيا ، كما كان الحال فى النمسا والمجر ، فقد تشكلت الدولة المركزية قبل استكمال الترابط الوطنى . وكان من أثر ذلك أن تشكلت فى البلدين دولتان متعددتا القوميات وتضمان شعوبا من أصول متعددة . وقد أخضعت الطبقات الحاكمة للقومية السائدة فيها جانبا كبيراً من سكانهما وعرضته للاضطهاد القومى . وكان من السمات الخاصة بروسيا أيضا أن مستعمراتها الشاسعة متاخمة للدولة الام بصورة مباشرة ، وأن مسألة القوميات ارتبطت ارتباطا وثيقا بمشكلة المستعمرات .

وكانت الامبراطورية الروسية من أكبر الامبراطوريات العالمية ، إذ بلغت مساحتها ٢٢,٤ مليون كيلو متر مربع ، أى ما يساوى سدس مساحة اليابسة فى العالم . وكان تعداد سكانها فى ١٩١٤ يتجاوز ١٧٠ مليون نسمة . والجانب الاكبر من السكان ، أكثر من ١٤٠ مليون نسمة ، يعيشون فى روسيا الاوربية ، بينما لا يعيش فى القسم الآسيوى من البلاد غير حوالى ٣٠ مليون نسمة .

وتقع معظم المناطق التى تقطنها القوميات غير الروسية على أطراف

الامبراطورية . فى الغرب كانت هناك فنلندا وشاطىء بحر البلطيق وبولندا وبلروسيا ولتوانيا واوكرانيا وملدافيا . وفى الجنوب هناك القوقاز الذى يتألف بدوره من مجموعة من العناصر القومية . وفى الجنوب الشرق هناك كزاخستان وآسيا اوسطى . كما أن هناك أقليات قومية أخرى تقطن سيبيريا والشرق الأقصى والشمال . وفى القسم الأوسط من البلاد ، بين المجرى الأوسط لنهر الفولجا وجبال الاورال كان هناك إقليم شاسع تقطنه مجموعات عرقية متعددة لا يشكل أى منها أغلبية متميزة .

وكانت الامبراطورية الروسية توسع حدودها سواء بالقوة المسلحة أو بالوسائل الدبلوماسية . وقد انضم سكان كثير من الاقاليم إلى الامبراطورية طواعية ، إما عن طريق إعادة توحيد القوميات ذات الأصل المشترك والتى كانت قد خضعت مؤقتا للسيطرة الأجنبية (الاوكرانيون والبلوروسيون واللتوانيون) أو لاعتبارات الامن القومى ، أو للفرار من العبودية أو عمليات الإبادة (الجورجيون والارمن والازربيجانيون) . وانضمت مناطق أخرى مثل فنلندا وبولندا إلى الامبراطورية الروسية بمقتضى معاهدات دولية . وأضيفت مناطق غيرها إلى الامبراطورية تحت الضغط الدبلوماسى أو العسكرى أو نتيجة للغزو ، ومن أمثلتها كازاخستان وقيرغيزيا والمجموعات العرقية الجبلية فى القوقاز . كما لعبت دوراً كبيراً فى الاستيلاء على الاراضى الجديدة عمليات الاستكشاف التى قام بها الرحالة الأوائل والجهود التى بذلها التجار والمستوطنون الذين قاموا مثلا باستثمار السهول الشاسعة قليلة السكان فى جنوب سيبيريا وفى الشرق الاقصى .

وكان اللقب الكامل لامبراطور روسيا يعبر عن الطابع متعدد القوميات للامبراطورية . إذ كان يضم عشرات الالقاب مثل امبراطور روسيا كلها وسيدها ، وملك بولندا وقازان واستراخان وسيبيريا ، والدوق الاعظم لفنلندا وسمولنسك ولتوانيا . وكثير من الالقاب الاخرى .

وسجل التعداد الذى أجرى فى عام ١٨٩٧ ، ١٤٦ لغة ولهجة مستخدمة داخل الامبراطورية ، دون أن تشكل أى قوميه منها أغلبيـــة مطلقة . وكان الروس ، والمفترض أنهم يشكلون القومية السائدة ، يؤلفون أغلبية السكان فى المناطق الوسطى لروسيا الأوربية وسيبيريا وتبلغ نسبتهم ٤٣ ٪ من المجموع . يليهم الاوكرانيون (١٧٪) والبولنديون (٦٪) والبللوروسيون (٥٪) واليهود (٤٪) والقرغيزيون والتتار (حوالى ٣٪ لكل منهما) والفنلنديون (حوالى ٢٪) والألمان واللتفيون واللتوانيون والبشكيريون والجورجيون والأرمن والمدافيون والموردفينيون والإستونيون (بين ١ ، ٥و١٪ لكل منهم) ويؤلف الروس والاوكرانيون والبللروسيون أغلبية نحو الثلثين . وكان لهم أصل مشترك وتاريخ مشترك ، ولغتهم وحضاراتهم متقاربة .

أما المناطق النائية التى تقطنها القوميات غير الروسية فتختلف فى أوضاعها السياسية والثقافية والدينية . وكان ذلك يتوقف إلى حد كبير على ظروف دخولهم الامبراطورية الروسية . ففى بعض الحالات حافظت القيصرية على مؤسساتهم وقوانينهم التقليدية ، وأتاحت للأهالى المحليين قدرا من الاستقلال الذاتى فى الجوانب السياسية والثقافية والدينية . ومن أمثلة ذلك فنلندا وبولندا وبخارى وخيفا . غير أن الاندماج الكامل كان أكثر الحالات شيوعا . وعلى سبيل المثال فإن المناطق الاوكرانية والبيللوروسية واللتوانيـــة فقدت بعد الانضمام إلى الامبراطورية أسماءها السابقة ذاتها . ويصدق نفس القول على جورجيا وأرمينيا واذربيجان وعدد من المناطق الاخرى التى تقطنها قوميات غير روسية . وفى معظم الحالات لم يكن التقسيم الإدارى يراعى التركيب القومى للسكان .

وكانت الاوتوقراطية الروسية تعتبر دائما أن الامبراطورية لا يمكن أن تتجزأ ، فهى كيان موحد . وكانت تعتقد أن من أهم الوسائل للإبقاء على هذه

الوحدة العمل على روسنة المناطق النائية ، وقمع الثقافة الخاصة بقومياتها ، والسعى إلى إذابتها إذا صح هذا التعبير . وسارعت القيصرية إلى الأخذ بالمبدأ الاستعمارى القديم « فرق تسد » فى إدارتها للدولة ذات اللغات المتعددة . فهى لم تكتف بالاعتداء على حقوق الشعوب غير الروسية بل أثارت أيضاً العداوات بين الواحدة منها والأخرى ، وبذرت بينها الكراهية والشك والخلاف ، وشجعت المصادمات بين القوميات المختلفة ودفعت إلى المذابح وارتكاب الفظائع .

وبلغت المطامع السوفيتيه فى الدولة الكبيرة لدى الاوتوقراطية ذروتها فى بداية القرن العشرين . وانعكس ذلك قبل كل شيء فى ازدياد المركزية فى السياسة الداخلية . وقد يبدو أن هذا الاتجاه استند إلى عامل موضوعى ، وهو ازدياد الروابط الإقتصادية بين الأقاليم المختلفة ، مما كان يحقق احتياج البلاد إلى النمو الاقتصادى الشامل . ولكن كان لابد فى ظل نظام استبدادى ودولة بوليسية أن تصبح هذه السياسة استبدادية وقمعية ، وأن تؤدى إلى فرض المزيد من القيود السياسية والثقافية والدينية على الأقليات القومية . ومن ناحية أخرى فإن التطور الرأسمالى السريع عجل بتشكيل القوميات البورجوازية . كما أدى الوعى الوطنى الذى ينمو بسرعة إلى ازدياد حساسيـــة الشعوب المقهورة إزاء أى شكل من أشكال التمييز القومى .

وتباينت أشكال الاضطهاد القومى والاحتجاج عليه تبعا لوضع المنطقة المعنية فى النظام السياسى للأمبرطورية ومستوى تطورها الاجتماعى الاقتصادى . فبعض تلك المناطق ، كفنلندا وبولندا ومناطق البلطيق وبللوروسا واوكرانيا ، لم تكن تقل عن المناطق المركزية فى روسيا من حيث تطورها الاقتصادى بل وكانت تسبقها أحيانا فى كثير من المجالات . ولم تكن هذه المناطق مستعمرات بالمعنى الاقتصادى ولكنها أخضعت للقهر السياسى والثقافى وللقيود الدينية ، وكذلك

اختلفت أشكال الاضطهاد الوطنى ومدى شدته . فوضع فنلندا مثلا حددته معاهدة نصت على قدر كبير من الاستقلال الذاتى السياسى (كان لفنلندا برلمانها وجيشها وعملتها وقدر من الحقوق السياسية والمدنية) وكان ذلك وضعا ممتازا إلى حد ما . وكان للنبلاء الالمان وصغار الحائزين فى المدن عدد من الامتيازات فى مناطق البلطيق ، ولاسيما فى نظام الحكم الذاتى المحلى والمحاكم . وكانت القيصرية تسعى لان تجعل الظروف المحلية فى تلك الانحاء مماثلة للظروف فى بقية روسيا . وتجلى الاضطهاد القومى فى أوكرانيا وبللوروسيا ولتوانيا بأوضح صورة فى القيود التى فرضت على اللغات المحلية بل والمعاقبة على استخدامها . أما بولندا فقد غير اسمها وأصبح إقليم الفستولا ، وحاولت الاوتوقراطية أن تجعل منها إقليما عاديا من الاقاليم التى تقع على أطراف الامبراطورية . وألغى كل ما كانت بولندا تتمتع به فى الماضى تقريبا من استقلال ذاتى انتقاما من الانتفاضة التى وقعت فى عام ١٨٦٣ .

غير أن أشد أشكال الاضطهاد القومى كانت تمارس ضد الشعوب التى تقطن المناطق المستعمرة المتطرفة فى الامبراطورية . وكانت روسيا تشغل المكان الثانى فى العالم من حيث اتساع ممتلكاتها الاستعمارية (بعد بريطانيا) وتشغل المكانة الثالثة من حيث تعداد سكان تلك الامبراطورية (بعد بريطانيا وفرنسا) . وفى عام ١٩١٤ كان مجموع مساحة المستعمرات الروسية ١٧٫٤ مليون كيلو متر مربع ، ومجموع سكانها ٣٣٫٢ مليون نسمة . وكانت تلك المساحة تزيد عن ثلاثة أرباع مساحة البلاد ، وتمثل أكثر من خمس التعداد السكانى فيها . غير أن الاضطهاد الاستعمارى لم يكن مطابقا دائما للاضطهاد القومى .

فالسهول الشاسعة فى أوكرانيا وشمال القوقاز وجانب كبير من سيبيريا كانت نماذج لنوع معين من الاستعمار . فنظرا لقلة عدد الأهالى الاصليين واتساع مساحات الأراضى غير المستغلة ، كانت تلك المناطق هدفا للاستغلال . وكان

معظم المتوطنين فيها من الفلاحين الروس والاوكرانيين والبيللوروسين .
وفى سيبيريا مثلا كان هؤلاء يمثلون ٨٥٪ من الاهالى . وكانت تلك مناطق زراعية يسود فيها الاقتصاد الاستعمارى بشكل واضح . ولكنها رغم خضوعها للاضطهاد الاستعمارى المعتاد لم تكن تختلف فى تركيبها القوى عن المناطق الوسطى للبلاد .

وهناك طراز آخر من المستعمرات يتمثل فى المناطق المتطرفة فى الامبراطورية والتى يتألف سكانها فى الأغلب من عناصر غير روسية ، كأبناء القوقاز ، وآسيا الوسطى وكازاخستان ، والشمال الأقصى ، وأجزاء من سيبيريا ، والأراضى الواقعة على امتداد نهر الفولجا وجبال الأورال . وحتى إلى عهد قريب كبداية القرن العشرين ، كان بعض تلك الشعوب لا يزال فى مرحلة التطور السابقة على الرأسمالية بل والسابقة على الإقطاع . وفى تلك المناطق اجتمع الاضطهاد الاستعمارى مع الاضطهاد القومى . وكانت وسائل الاستغلال شبه إقطاعية ومميزة للمراحل الأولى للرأسمالية : مصادرة الأراضى ، وفرض الضرائب العينية وما إليها ، مصحوبة بالنهب السافر للأهالى المحليين من جانب الإدارة الاستعمارية والارستوقراطية المحلية . وتفاقم الاضطهاد على الأساس الحضارى والقومى فى تلك المناطق نتيجة لعدم تمتع الجماهير العاملة بأى حقوق سياسية أو مدنية .
وكان الاستبداد الإدارى للسلطات القيصرية فى تلك المناطق لا يقف فى الواقع عند حد . وكانت وزارة الحرب هى التى تحكم المستعمرات . ولم يكن بها محاكم مدنية من الناحية العملية ، وكانت الأغلبية الساحقة من الأهالى المحليين تعانى من الأمية .

وعندما نمت الرأسمالية الروسية ، من ناحية الإتساع ، وامتدت شبكة الطرق الحديدية ، وإنجذبت المناطق النائية ودخلت ضمن النظام الإقتصادى الشامل

فى روسيا ، وتحولت إلى مورد للمواد الخام للصناعات فى المناطق المركزية . وأصبحت آسيا الوسطى والترانسقوقاز مثلا من المصادر الأساسية للقطن الذى تستخدمه مصانع الغزل . وأصبحت سيبيريا وكازاخستان هى المورد الأساسى للحبوب الرخيصة واللحوم والزبد والجلود والصوف . وظهرت مراكز أخرى للتعدين واستخراج البترول فى عدد من المناطق، وأصبحت مدينة باكو فى أذربيجان مثلا من أكبر مراكز استخراج البترول فى العالم . واكتسبت مناجم النحاس والمنجنيز فى أرمينيا وجورجيا ، ومناجم الذهب فى سيبيريا ، أهمية إقتصادية كبرى . وفى بداية القرن العشرين كانت المناطق الإستعمارية المتطرفة تمثل نحو ٤٥٪ من إجمالى الإنتاج ، ونحو ربع العاملين فى صناعات التعدين . وكذلك تطورت الصناعات التحويلية وإن كان ذلك بسرعة أقل . وجملة القول أن الصورة كانت هى الصورة التقليدية للعلاقات بين المستعمرات والدولة الكبرى .

ولكن لما كانت المستعمرات والدولة الكبرى داخل الامبراطورية الروسية متجاورة ، كان ذلك مصدراً لسمات مميزة للاضطهاد فى المناطق المتطرفة غير الروسية . ولم يكن الدور الذى لعبه هذا العنصر فى حياتها دوراً بسيطا أو متماثلا . وكان اجتماع الاضطهاد القومى والاضطهاد الاستعمارى سببا فى تفاقم ما يعانيه الأهالى المحليون من بؤس . وأدت سياسة النهب التى تسير عليها القيصرية والرأسماليون الكبار إلى إبطاء تطور أولئــــك الأهالى . ومع ذلك فإن الدخول إلى روسيا كان له دور إيجابى من الناحية الموضوعية بالنسبة لعدد من القوميات غير الروسية ، ولاسيما القوميات التى لم تكن قد تطورت كثيراً . فقد ألغيت العبودية وسلطة السلاطنة والخانات ، ووضعت حدود لتملك السادة الإقطاعيين المحليين ورؤساء القبائل ورجال الدين للأرض . وبدأت ثقافات القوميات المختلفة فى الامتداد إلى القوميات الأخرى وإثرائها . وساعدت هذه العوامل مجتمعة

فى جذب تلك الشعوب إلى إطار النظام الرأسمالى لروسيا ، بكل ما ترتب على ذلك من نتائج مثل زيادة سرعة التطور الإجتماعى ، والإقتصادى والثقافى ونشوء هيكل إجتماعى رأسمالى . وكانت أهم النتائج بلا جدال هى مشاركة الجماهير الكادحة فى تلك المناطق فى الكفاح التحريرى العظيم الذى يخوضه شعب روسيا . وبذلك اندمجت حركات التحرر الوطنى فى المجرى الرئيسى للنضال الثورى لكل روسيا ضد القيصرية .

وكان حل مسألة القوميات ومسألة المستعمرات يتوقف إلى حد كبير على النظرة الطبقية . ورغم أن القوميات المختلفة كانت تختلف فى أوضاعها وفى مستوى تطورها ، ورغم أن تمييز وضعها كان من الأمور العسيرة والمعقدة ، فإن روسيا متعددة القوميات لم تتحول إلى بابل . وتبلور اتجاهان مختلفان لحل هاتين المسألتين .

فنجد من ناحية أن الرأسماليين المحليين والارستوقراطية المحلية ، بالرغم من كل معارضتها بل وعدائها للقيصرية ، كانت تتجه فى المدى الطويل إلى التحالف مع الطبقة الحاكمة الروسية . وكان المعتاد ألا تتجاوز مطالبها تقديم التماسات بتطبيق الإستقلال الذاتى الثقافى والقومى فى إطار الإمبراطورية الروسية . وهذا الموقف من القضية ، الذى ينطوى على إنكار فعلى لحق الشعوب فى تقرير مصيرها جعل من المتعذر تسوية مسألتى القوميات والمستعمرات فى روسيا بمبادرة من جانب البورجوازية أو تحت قيادتها .

ومن ناحية أخرى فإن جموع الجماهير العاملة فى المناطق غير الروسية اتجهت نحو التحالف مع العمال والفلاحين الروس بفضل الإتحاد الوثيق فى مصالحهم الإجتماعية وكان ذلك أمراً طبيعيا . فالاستبداد القيصرى مهما تكن قسوته وهمجيته إزاء الشعوب غير الروسية ، كان بوجه عام قاسيا بنفس الدرجة فى معاملته للجماهير الكادحة فى أنحاء الإمبراطورية الروسية . فالجميع كانوا متساويين فى انعدام

الحقوق ورغم أن الروس كانوا يعتبرون من الناحية الرسمية هم الأمة الحاكمة ، فلم تكن لهم فى الواقع أى امتيازات عن غيرهم من القوميات . وكانوا هم أيضا محرومين من الإطلاع على كنوز ثقافتهم وحضارتهم . ورغم أن روسيا قدمت للعالم كتابا عظاما مثل ليو تولستوى وانطون تشيكوف وفيودور دستويفسكى ومكسيم جوركى ، كان معظم الروس أميين . وفى مطلع القرن العشرين كانت روسيا تحتل المركز الثانى والعشرين فى أوربا من حيث عدد الطلبة بالنسبة لكل مائة من السكان ، والمركز الخامس عشر من حيث الإنفاق على الفرد من أجل التعليم . فإذا قلنا إن روسيا كانت سجن الشعوب فإن الشعب الروسى العظيم كان أكبر السجناء . ولذا فإن أفكار شوفينية الدولة الكبيرة التى حرصت السلطات القيصرية على نشرها لم تجد تربة صالحة لدى الجماهير العريضة من الشعب كما أن الدعاية القومية التى سمحت لترويجها البورجوازية والارستوقراطية المحلية فى المناطق غير الروسية فشلت بدورها . وكانت العلاقات الزراعية والاستغلال الرأسمالى فى المناطق غير الروسية متفقة فى الجوهر مع مثيلاتها فى الأقسام المتوسطة من روسيا ، وكان لهذا العامل أثره الكبير .

ومن ثم نجد فى روسيا أن القضايا الإجتماعية الإقتصادية والمشاكل الطبقية قد تقدمت على القضايا القومية ، إذ كان لهذه الأخيرة أهمية تالية ومشتقة فى الكفاح الإجتماعى ، وكان حلها متوقفا على حل القضايا الأساسية .

وكان من أثر ذلك أن تكونت البروليتاريا الروسية من قوميات متعددة ، وكان كفاحها أمميا بطبيعته . وقد اتخذ الماركسيون الثوريون موقفا ديموقراطيا أصيلا فى سعيهم لحل مسألة القوميات . وترتب على ذلك أن كانت الطبقة العاملة ، لا البورجوازية ، هى قائدة الحركة الديموقراطية فى روسيا من أجل المساواة القومية والحرية الكاملة لكل شعب فى تقرير مستقبله .

ثانيا : الإناء يغلى :

الطبقات العليا والدنيا

المعسكر الحاكم :

لما كان هنـــاك ارتباط وثيق بين القضايا المتبقية من الثورة الديمقراطية البورجوازية ونضج الثورة الاشتراكية ، كانت هناك علاقات خاصة مميزة بين القوى المتصارعة على المسرح السياسى فى روسيا ، وكان من سمات الثورات البورجوازية فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر بالمواجهة بين معسكرين رئيسيين . معسكر المدافعين عن النظام القديم ومعسكر العاملين على تحطيمه . ولكن كانت فى روسيا فى مطلع القرن العشرين ثلاثة معسكرات سياسية متنازعة : الدوائر الحكومية ، والعناصر البورجوازية الليبرالية ، والقوى الديموقراطية الثورية التى تقودها البروليتاريا .

وكان أنصار النظام القديم البالى يشكلون المعسكر الحكومى الذى يضم الملكية الأوتوقراطية . ورغم أن موقف القيصرية كان قد ضعف فقد كانت لاتزال تمثل قوة يحسب حسابها . وترجع قوتها إلى حد كبير إلى أن الأرستوقراطية كانت تستخدم القطاع الرأسمالى الحكومى لدعم مواقعها الاقتصادية إلى جانب مساحات الأرض الشاسعة المملوكة للحكومة والموروثة من العصر الإقطاعى ويشمل ذلك عشرات المصانع المملوكة للحكومة ، وأكثر من ثلثى الخطوط الحديدية ، وشبكة التسليف الواسعة التابعة لبنك الدولة ، وماإليها . وكانت تحت تصرفها قوة الدولة بكاملها وهى جهاز هائل من الموظفين والشرطة (كان لدى روسيا فى بداية القرن العشرين ٣٨٠٠٠٠ موظف وأكثر من ١٠٠٠٠٠ من رجال الشرطة) وجيش يبلغ تعداده

نحو مليون ونصف مليون جندى يقوده ٤٠٠٠٠ ضابط ينحدرون من أسر النبلاء وكان هناك أيضا ... ٢٠٠ من رجال الدين الذين يعملون للتأثير على عقول جماهير الشعب يوما بعد يوم لإقناعها بأن القيصر هو أبو الأمة ، وأنه يعدل بين الفقراء والأغنياء ، ويدعون إلى الطاعة العمياء لأولى الأمر .

وكان النبلاء يشكلون القاعدة الاجتماعية للقيصرية . وقد احتفظوا بمواقعهم الأساسية فى جهاز الدولة والجيش وأجهزة الحكم الذاتى المحلى . كما أن كبار رجال الأعمال الذين اعتمدوا فى نشاطهم على العقود الحكوميه ، أيدوا الأتوقراطية لأنها وفرت للرأسماليين أرباحا هائلة ، وكان جيشها يحميهم من أى مظهر من مظاهر سخط العمال . واستمرت الحكومة القيصرية فترة طويلة فى استغلال المشاعر العائليه . وأوهام العلاقة بين الأب والأبناء لدى جماهير الشعب ولا سيما الفلاحين .

وأخيرا وليس آخرا ، فى اللحظات الحاسمة عندما كانت القيصرية تجد نفسها على شفا الإفلاس المالى ، كان الرأسماليون الغربيون يمدون لها يد المساعدة . وعلى سبيل المثال ، فعندما كانت ثورة ١٩٠٥ — ١٩٠٧ فى ذروتها قدم رجال البنوك الفرنسيون للحكومة القيصرية قرضا بحوالى ١٠٠٠ مليون روبل كان له أثر كبير فى تحسين موقفها .

غير أن الوضع العام للقيصرية أخذ فى الاهتزاز بشكل متزايد . فبعد عام ١٩٠٥ بدأت الأرض تميد تحت أقدامها ، واضطرت الأوتوقراطية إلى اللجوء إلى المناورات البونابارتية . إذ كانت أوهام الفلاحين عن القياصرة قد بدأت تتبدد ، وعلقت الحكومة آمالها على المزارعين الأغنياء ، الكولاك . واستغلت المعارضة البورجوازية خطر الثورة فطالبت بنصيب فى إدارة شؤون البلاد ، وحاولت القيصرية أن تخفى استبدادها بورقة التوت التى تمثلت فى الحكم البرلمانى .

ومن خلال التلاعب بالقانون الانتخابي تمكنت الحكومة من الوصول إلى تركيب مقبول لمجلس الدوما ، وحاولت أن تقيم تحالفاً وثيقاً داخله بين الرأسماليين والملاك . وكان النظام الاوتوقراطي يأمل أن يتمكن من حل المشاكل الموضوعية للثورة من أعلى ، كما فعل من قبل بسمارك « المستشار الحديدي » في روسيا .

وكان صاحب السياسة الحكومية الجديدة ، ب . ا. ستوليبن ، يؤكد أن الإصلاحات ضرورية وحتمية ، لأن الصراع المباشر ضد الثورة لن يتمكن في أحسن الأحوال إلا من إزالة آثارها ولكنه لايستطيع أن يزيل أسبابها .

وكانت السياسة التي دعا إليها ستوليبين تتطلب من الأتوقراطية أن تتقدم خطوة أخرى في إتجاه الملكية البورجوازية مع الاحتفاظ بالمظاهر الأساسية لسلطة القيصر . وكان المفروض أن يؤدي الإصلاح الزراعي إلى تخفيف حدة التناقضات الطبقية في الريف وأن يقلل أو ينهي التناقض الأساسي للحياة في روسيا ألا وهو التناقض بين الملكية الإقطاعية للأراضي والزراعه المتخلفه وبين لرأسماليه الصناعيه والماليه الحديثه . غير أن الآمال عقدت على الفلاحين الأغنياء ، الكولاك ، باعتبارهم ركيزة اجتماعيه جديدة للاوتوقراطيه . كما أملت الحكومه أنها عن طريق إدخال حد أدنى من الإصلاحات البورجوازيه الليبراليه ، في المجال السياسي يمكن أن تدعم مركزها ، معتقدة بحق أن الليبراليه البورجوازيه المعاديه للثورة هي تيار محدود وليس له منطق متسق .

غير أنه لم يمض وقت طويل حتى تبين أن الإصلاح الزراعي الذي أعده ستوليبين لم يحقق ماعقد عليه من آمال ، وأن العناصر الرجعيه بين كبار الملاك رفضت أن تقدم أي تنازل للمعارضه البورجوازيه - بل وظهرت معارضه عينه ، ووقف الملاك الرجعيون ضد خطط الحكومه الراميه إلى إدخال بعض الأساليب

المصرية على الإدارة المحلية وأجهزة الحكم الذاتي والقضاء ، ورأوا في هذه الإصلاحات محاولة للحد من مكانتهم ونفوذهم .

وسعى أنصار الأوتوقراطية ، الذين عرفوا من قبل مخاطر الثورة ، إلى النجاة عن طريق تنظيم صفوفهم . فتكون عدد من الأحزاب والتنظيمات اليمينية المتطرفة من الملاك ذوي العقلية الملكية ، كان من بينها « مجلس النبلاء المتحدين » و « الحزب الملكي الروسي » و « المجلس الروسي » و « الحزب الوطني » . ورغم وجود خلافات بسيطة حول بعض نقاط برامج هذه الأحزاب ، فقد كانت جميعها متفقة على شيء واحد ، هو ضرورة المحافظة على سلطة أوتوقراطية غير محدودة ، وعلى روسيا « موحدة وغير قابلة للتجزئة » ، وعلى « الملكية الإقطاعية وامتيازات النبلاء » .

وقام « مجلس النبلاء المتحدين » بدور القيادة الفكرية ومركز التنسيق لجميع الأحزاب اليمينية . وقد تشكل هذا المجلس في عام ١٩٠٦ ليضم الجمعيات الأقليمية السبع والثلاثين للنبلاء ، والتي كانت تمثل عصب فئة النبلاء منذ نهاية القرن الثامن عشر . وكان الجهاز القيادي لهذا التنظيم ، وهو المجلس الدائم ، لأكثر الملاك ثروة ونفوذا ممن يتصفون عموما بالاتجاه السياسي إلى اليمين المتطرف . وقد تجسد التكوين الاجتماعي والسياسي لهذا الجناح من القوى الرجعية للملاك ، في شخص الرئيس الأول للمجلس ، الكونت ا . ا . بوبرنسكي ، الذي كان ينتمي إلى واحدة من أغنى أسر النبلاء وأكثرها ارستوقراطية وكان الكونت بوبرينسكي يملك مزارع شاسعة ومعامل لتكرير السكر ، وكان قد اكتسب سمعة واسعة باعتباره من الرجعيين المتعصبين . وخلفه في رئاسة المجلس شخصيات أخرى لا تقل عنه رجعية مثل ا . ب . ستركوف و د . ف . سامارين . وكان كل منهما يملك بين ٦٠ و ٧٠ ألف هكتار من الأرض .

وكان مجرد قيام « مجلس النبلاء المتحدين » كتنظيم للطبقات الحاكمة ويمثل « كبار الملاك الروس » يجعل له وزناً ونفوذاً خاصاً في المجالات السياسية .
ويزداد هذا النفوذ نظراً لأن كثيرين من أعضائه يشغلون مناصب حكومية هامة ، ولهم ارتباطات واسعة مع البلاط الملكي ومجلس الدولة ومجلس الدوما . ومن الأمثلة الواضحة على ذلك الكونت بوبرينسكي نفسه ، إذ كان في أوقات مختلفة عضواً في مجلس الدوما ، ومجلس الدولة ، ونائباً لوزير الداخلية ، ووزيراً للزراعة ، ورئيساً لمجلس إدارة البنك الإنجليزي الروسي ، بالإضافة إلى شغله مكاناً رفيعاً في البلاط الملكي . وكان من الحقوق الرسمية للرئيس الدائم للمجلس أن يقدم تقاريره إلى القيصر مباشرة بل إن كثيرين من الشخصيات البارزة الأخرى في المنظمة ممن يشغلون مناصب عالية في البلاط كانوا يستطيعون بسهولة أن يتصلوا بالامبراطور.

وشكل الأعضاء اليمينيون في مجلس الدولة ومجلس الدوما أجنحة أخذت تتصرف كما لو كانت أحزاباً سياسية . وكان اليمينيون قد عارضوا في البداية تشكيل أي أجهزة نيابية ، ولكنهم سرعان ما أدركوا أن مجلس الدوما يمكن أن يستخدم لعرض آرائهم والضغط على الحكومة أما الأرستوقراطية فركزت نشاطها السياسي في مجلس الدولة . وينبغي أن نلاحظ أن مجلس الدولة لم يصدر قانوناً واحداً يمكن أن يضر بمصالح الملاك ولو ضرراً بسيطاً .

وكان لليمينيين أيضاً « أبطالهم » في مجلس الدوما الذي يتطلب بعد القدرة على الخطابة والكلام . وكان قائدهم ن . م . ماركوف من كبار الملاك في مقاطعة كورسك ، ومن المعروفين بآرائهم الرجعية والغيبية . وكان من عادته أن يقول مباهياً إن الشيء الوحيد الذي يقف إلى يمينه هو جدار قاعة المؤتمر . وكان صوته الأجش يتبادل مع الصوت الحاد لزميله ف . م . بوريشكفيتش « أكثر النبلاء روسية » ، والذي كان يملك مزارع في بساراابيا ، كان يشغل إحدى وظائف وزارة الداخلية .

واشتهر هذان اليمينيان بخطبهما الهستيرية والتى اتخذت هجمة جارمية فى بعض الأحيان ضد الأعضاء اليساريين فى الدوما، وضد الليبراليين، بل وضد الوزراء الحكوميين الذين اتهموا « باللين » . وذكر بوريشكيفيتش فى إحدى خطبه صراحة أن اليمينيين يعتبرون حكومة ستوليبين ، التى كانت تحاول أن تطبق ماوصف بأنه نظام دستورى ، عدوهم السياسى . ويمكن أن ندرك مغزى هـذه العبارة عندما نذكر أن جميع الوزراء كان القيصر قد اختارهم بنفسه .

ولم يقف ماركوف وبوريشكيفيتش عند حد أقوالهما المشينة فى الدوما ، بل إنهما تعاونا مع الدكتور ا . ا دوبروفين ، وهو شخص له ماض مشبوه ، فى تشكيل جماعات يمينية شوفينية متطرفة مثل « اتحاد شعب روسيا » و « رابطة الملاك ميخائيل » ، وقد أطلقت هذه التنظيمات على نفسها اسم « السود المائة » (وهو الإسم الذى كان يطلق على وحدات الحرس الخاص للقيصر فى الأزمنة القديمة) ، وكان هدفها الوقوف ضد الحركة الثورية وجمع أوسع الفئات الممكنة من أبناء المجتمع الروسى تحت راية الملكية . وكانت بذلك تحاول إحياء الأوهام عن القيصرية لدى أشد الفئات جهلا وتخلفا فى المدينة والريف . ولـيكون لندائهم جاذبية شعبية أدركت فى برامجهما عدداً من الأقوال الشبيهة بما تنادى به بعض الأحزاب اليسارية وحرصت بوجه خاص على كسب تأييد « الطبقات الدنيا » ، وعلى سبيل المثال فقد وعدت الفلاحين بالمساعدة فى شراء الأراضى المملوكة للحكومة بشروط ميسرة . كما طالب اليمينيون تطبيق ساعات عمل أقل . ووضع نظام حكومية للتأمين الاجتماعى ، وتنظيم أفضل للعمال ، الخ .

وكان نيقولا الثانى نفسه ينظر بعطف شديد إلى السود المائة ويرتدى شارة العضوية فى اتحاد الشعب الروسى . وكانت هاتان المنظمتان تمولان من المصاريف السرية للحكومة ، ولـكنهما لم تنجحا فى أى وقت فى تشكيل قاعدة عريضة لنظام الملكية الأوتوقراطية بين الجماهير العادية . وكانتا تعلنان أن النضال ضد الثورة

هو الهدف الرئيسى لكل منهما . ونظمت بعض فروعها المحلية سلسلة من عمليات الاضطهاد لليهود والاغتيال للثوريين البارزين والساسة الليبراليين . بل وقد وضعتا الخطط لاغتيال بعض كبار الموظفين كانت آراؤهم تبدو شديدة التحرر بالنسبة لهاتين المنظمتين . بل إن هناك أسبابا تدعو للاعتقاد بأن « السود المائة » كانت لهم يد فى اغتيال ب ا . ستوليبين فى عام ١٩١١ . وكانت هذه المنظمات تعد بعض أعمالها بمعرفة البوليس بل وبالتعاون معه . وطبقا لمـــا قاله رئيس الوزراء السابق س . ى . ويت كان من الصعب التمييز بين عملاء البوليس السرى وإدارة الأمن وأعضاء مايسمى باتحاد الشعب الروسى .

وكان السود المائة يجمعون قواتهم الأساسية من بين صفوف البورجوازية الصغيرة والعناصر التى فقدت انتماءها الطبقى . ويحاول قادتها من وقت لآخر الإيهام بأن لها تأييدا شعبيا واسعا عن طريق تنظيم مظاهر الاحتجاج « الجماهيرية » من خلال فروعها المحلية ضد ماتبديه الحكومة من رغبة للسير فى الاتجـــاه الليبرالى ، أو من ناحية أخرى بإرسال رسائل تهنئة للقيصر على كل خطوة « حازمة » يتخذها .

وكان من المحاولات الأخرى لايجاد قاعدة شعبية لأحزاب الملاك ، تشكيل « اتحاد عموم روسيا لملاك الأراضى » . وكان المقصود إجتذاب الفلاحين الأغنياء إليه . غير أن الإتحاد مات بهدوء بعد خمس سنوات ليعود إلى الظهور مرة أخرى على المسرح السياسى فى عام ١٩١٧ ليلاقى نفس المصير . وبعد أن أدت الأحزاب اليمينية مهمتها فى تعبئة القوى الرجعية فى السنوات المضطربة للثورة الروسية الأولى ، وأحبطت جميع المحاولات لإدخال قدر من الحرية على النظام ، بدأت فى الحد من نشاطها مع اقتراب الحرب العالمية الأولى .

ذكر ب . ن . ميليوكوف زعيم الحزب الدستورى الديموقراطى فى كلمة ألقاها فى حفل استقبال أقامه عمدة لندن فى صيف عام ١٩٠٩ أن المعارضة فى روسيا سوف تبقى معارضة صاحب الجلالة وليست معارضة له . ولم تلبث هذه العبارة أن ذهبت مثلا . فهى تتضمن تغييراً بسيطاً فى معنى كلمة « معارضة » . فهى لم تعد تعنى أشخاص يتهمون النظام القائم ويدفعون القيصر ووزراءه إلى الخوف والارتجاف ، بل هم حفنة من ذوى النوايا الطيبة ممن ينتقدون « تجاوزات » النظام الأوتوقراطى ، ويحلمون بأن يأخذ خطوة بعد خطوة بالأساليب العصرية وفقا للنمط البريطانى « الكلاسيكى » . وخلال الفترة التى عاشتها الليبرالية الروسية كانت علاقتها « بالسلطة التاريخية » ، وهو الوصف الذى أطلقته على النظام القيصرى ، فى تغير مستمر . فهى أحيانا تكتسى باللون « الوردى » بل واللون « الأحمر » تحت تأثير الهبات الثورية ، ثم تعود فتغير جلدها وتتوب عما أبدت من حماسة فى المعارضة . غير أن موقفها العام كان يتفق فى مجموعه مع العبارة البليغة التى ذكرها ميليوكوف .

وكان من مصادفات التاريخ أن الأيديولوجية الليبرالية ، وهى أيديولوجية بورجوازية بطبيعتها والطبقة الرأسمالية ، قد عاشا فى روسيا فى وقت واحد ولمدة طويلة دون أن تلتفت إحداهما إلى الأخرى . فقد ظهرت الأفكار الليبرالية منذ النصف الثانى للقرن الثامن عشر فى ظل كاترين الثانية . وانتشرت هذه الأفكار لمدة أكثر من قرن بين المفكرين التقدميين المنحدرين من النبلاء والذين كان رد فعلهم عنيفا إزاء الاستبداد الأوتوقراطى . أما التجار وأصحاب المصانع ورجال البنوك وغيرهم من رجال الأعمال فكانوا حتى عام ١٩٠٥ يخافون كلمة « الليبرالية » ذاتها كما يخافون الطاعون ، وبقوا رعايا مخلصين لسيدهم صاحب التاج . ولذا كانت الحركة الليبرالية فى روسيا فى النصف الثانى من القرن الماضى مركزة فى

مجالس الزمستفو ـ الأجهزة المحلية للحكم الذاتي ـ والتي نشأت في معظم مقاطعات روسيا الوسطى في عام ١٨٦٤ . وكان الدور القيادي فيها للنبلاء من ملاك الأراضي ، بينما ساد المثقفون ذوو الفكر الديموقراطي (أطباء الريف ومدرسوه والمهندسون الزراعيون والمختصون بالإحصاء) بين موظفي المكاتب .

ورغم ما اتسمت به الحركة الليبرالية من ضعف وعدم استمرار ، فقد كانت تمثل مصالح التطور الرأسمالي للبلاد . ورغم معارضتها للبقايا الصارخة لنظام القنانة فإنها لم تتحرش أبدا بالنظام الملكي أو بملكيات الأراضي الواسعة . ولم يعبر الليبراليون إلا عن رغبتهم المعتدلة في أن تتسع حقوق مجالس الزمستفو حتى « يتوج » هيكل الأجهزة المحلية للحكم الذاتي بهيئة وطنية استشارية منتخبة .

وبقيت الحركة الليبرالية حتى نهاية القرن مجرد تجمع غير محدد الشكل لاتجاهات مختلفة . وحاول الليبراليون أن يجدوا أشكالا تنظيمية لحركة المعارضة ، فوضعوا البرامج وسعوا إلى توسيع قاعدتهم الاجتماعية عن طريق كسب تأييد الطبقات العاملة . وكانت الليبرالية الروسية في مجموعها تنجرف في بداية القرن العشرين نحو الاتجاهات الدستورية البورجوازية . لكن الليبراليين لم يتمكنوا في ذلك الحين من أن يصبحوا قوة اجتماعية ذات أهمية ، أو أن ينشئوا لهم حزبا سياسيا بالمعنى الحقيقي للكلمة .

وعندما قامت ثورة ١٩٠٥ أدخل الليبراليون الروس على برنامجهم تغييرات جذرية ، وضاعفوا من نشاطهم في معارضة الأوتوقراطية . وأعلنت أكثر المنظمات الليبرالية ميلا إلى اليسار وهي « عصبة التحرير » في مارس ١٩٠٥ برنامجا لا يعد الشعب فقط بالحريات الديموقراطية بل يعد أيضا بعدد من الإصلاحات الإجتماعية ، كان من بينها إنقاص يوم العمل إلى ٨ ساعات ، وتخصيص مساحات إضافية من الأرض للفلاحين الذين لا يملكون كفايتهم ،

وذلك من أراضى الحكومة ومن المزارع الخاصة عن طريق الإستيلاء على بعض المساحات مقابل دفع تعويضات . غير أن التحركات الشعبية الصاخبة ، ولاسيا الانتفاضة القوية لحركة الطبقة العاملة ، لم تلبث أن ردت حتى أشد الليبراليين حماسة إلى « صوابهم » . وكان الضغط الشعبي قد ألزم القيصر بأن يوقع فى ١٧ أكتوبر ١٩٠٥ بيانا يعد فيه بالحريات السياسية وبتشكيل مجلس الدوما التشريعى . وكانت تلك نقطة تحول المعسكر الليبرالى من التأييد الجزئى المشروط والتعاطف الجزئى مع الثورة فى ربيع وصيف عام ١٩٠٥ إلى رفضها صراحة وإدانة الأحزاب الثورية . وإذا كان الأمر قد تطلب فى دول الغرب بضع عشرات السنين حتى تمر الليبرالية بهذا التغيير فقد حدث فى روسيا خلال بضعة أشهر فحسب ، مما كشف عن القوة الهائلة للثورة الشعبية للعمال والفلاحين . ولكنه كشف أيضا عن أن الليبرالية الروسية ولدت ميتة . وأعلن الليبراليون استنكارهم الشديد للانتفاضة المسلحة فى موسكو فى ١٩٠٥ ، ووصفوها بأنها « جنون » و « حمق » وبأنها غالطة بشعة غير قابلة للإصلاح من جانب العمال والحزب البلشفى . وهكذا كشف الليبراليون بوضوح عن تحولهم إلى المساندة الأيدلوجية للأعمال المعادية للثورة وتبريرها وعن رفضهم لمبادىء الديموقراطية وحرية الشعب ، رغم أنهم كانوا يزعمون من قبل أن غرضهم الرئيسى هو الدفاع عن تلك المبادىء .

وتبلورت القوى الليبرالية فى النهاية فى حزبين سياسيين فى اكتوبر ونوفمبر ١٩٠٥ ، إذ شكلت الحزب الدستورى الديموقراطى (والذى يطلق عليه اسم الكاديت على سبيل الاختصار) واتحاد ١٧ أكتوبر (ويطلق عليه اسم الأكتوبريين) . وقد ضم أول هذين الحزبين يسار الوسط ، وضم الآخر الجناح اليمينى من عناصر الحركة الليبرالية . واجتذب حزب الكاديت بعض المثقفين الموظفين . وكان له فى البداية بعض التأييد من جانب البورجوازية الصغيرة فى

المدن ، بل ومن جانب فئات محدودة من العمال والفلاحين . غير أن هذه الفئات لم تلبث أن خرجت من تحت تأثيره . ومن ناحية أخرى فقد بدأ الحزب بعد قمع ثورة ١٩٠٥ — ١٩٠٧ فى دعم الاتصالات بالبورجوازية الاحتكارية الكبيرة أما النفوذ السائد بين الاوكتوبريين فكان الملاك والأغنياء الذين أعادوا تنظيم مزارعهم بحيث أصبحت على أسس رأسمالية ، وكذلك القطاعات العليا للبورجوزية التجارية والصناعية . وكان أثرهم على الفئات الديموقراطية الواسعة من المجتمع ضئيلا للغاية . وكانت علاقة الكاديت « بالقمه » الحاكمة ورجال الأعمال والمعسكر الديموقراطى علاقة معقدة . ففى البداية عندما كانت القيصرية فى خوف من الثورة ، سعت إلى تدجين الكاديت بل وتفاوضت معهم بشأن مشاركة الليبراليين فى الحكم (أكتوبر ١٩٠٥ ويونيو ١٩٠٦) . غير أن تقرب الكاديت إلى الشعب ، والأهم من ذلك ماتكشف بسرعة من العجز عن سد الفجوة بين الأوتوقراطية والملاك من ناحية وجماهير الشعب العامل من ناحية أخرى ، لم يلبث أن وضع حدا لذلك . فبعد أن فرغت الحكومة من مواجهة اضطرابات ١٩٠٥ كفت عن التعامل مع « حزب الحرية الشعبية » وهو الإسم الذى بدأ الكاديت فى إطلاقه على أنفسهم ، ولم تعد تتسامح معهم إلا لأن الكاديت لم يكونوا يتعرضون الأسس التى يقوم عليها النظام القائم . ولما كان برنامج الكاديت يتضمن كثيرا من عناصر الديماجوجية الإجتماعيه ، فقد كان يبدو للبورجوازية التجارية والصناعية حزبا « أحمر » منعزلا عن الواقع . وهكذا فرغم أن الكاديت نجحوا فى أن يكونوا المعبرين الأيدلوجيين الرئيسيين عن البورجوازية الليبرالية الروسية وكانوا يمثلون بحق مصالحها الاستراتيجية الأساسية إلا أنهم فشلوا فى كسب تأييد السلطات ذات النفوذ . أما بالنسبة للجماهير العريضة من الشعب فقد كان الكاديت دائما حزبا غريبا عنها باعتباره حزب « السادة » . وفشل الكاديت فى كسب التأييد سواء بين العمال والفلاحين

أو بين الفئات الرئيسية من المثقفين الكادحين . وبينما كان تنظيم الكاديت فى عام ١٩٠٦ فى ذروته يضم أعضاء يبلغون عدة آلاف فقد انحدر فيما بعد إلى مايشبه الاضمحلال الكامل والشلل ، ولا سيما فى مدن الأقاليم .

ونظرا لفشل الكاديت فى الحصول على تأييد الجماهير أو رجال الأعمال فإنهم لم يصبحوا فى أى وقت حزبا قويا للمعارضة ومن الأمور ذات الدلالة أنه مع انخفاض المد الثورى لعام ١٩٠٥ بدأت معارضة الكاديت فى الزوال . وأعلنوا فى بداية ١٩٠٦ صراحة أن روسيا يجب أن تبقى دولة ملكية دستورية . وفى ١٩٠٧ تخلوا عمليا عن مطالبتهم بحكومة مسؤولة أمام مجلس الدوما ، وضيقوا نطاق الإصلاح الزراعى الذى يطالبون به . وفى إحدى اللحظات الحرجة رفضوا أن يدافعوا عن الأعضاء العماليين فى مجلس الدوما الثانى ممن اتهمتهم السلطات القيصرية دون أى دليل بالأعداد لإنقلاب ، وفى سنوات الحكم الرجعى لستوليبين ، اختار الكاديت موقف « المعارضة المسؤوله » (على خلاف « المعارضة غير المسؤولة » من جانب الأحزاب الثورية) بل وكفوا عن إعداد مشروعات قوانين من جانبهم ، مكتفين بتقديم تعديلات مختلفة لمشروعات القوانين التى تقدمها الحكومة .

وقبيل الحرب العالمية الأولى ، ومع المد الجديد للحركة الثورية فى أنحاء البلاد ، عاد الكاديت إلى الإتجاه نحو اليسار ، بل وتجاسروا فى عام ١٩١٣ على التصويت ضد الاعتمادات المطلوبة لوزارة الداخلية والتى كانت تهدف أساسا إلى مقاومة أعداء الاتوقراطية . ولكن حتى فى ذلك الحين لم يجروء الكاديت على قطع علاقاتهم بالحكومة فقد كانوا يحاولون العثور على « موقف ثالث » لاوجود له ، إذا كانوا يسعون إلى التميز عن المعسكر الرجعى وعن الثوريين فى وقت واحد . ووجدوا أنهم يستطيعون فى أفضل الأحوال أن يعملوا « فى توازى مع القوى الثورية . وكان ذلك يعنى من الناحية العملية استخدام مايحققه نضاله

العمال والفلاحين من نتائج من أجل بلوغ أهدافهم السياسية وسعيهم للمشاركة فى السلطة مع النظام القيصرى المهترىء ولم يكن ذلك بأى حال من وسائل دعم نضال الشعب من أجل الحرية .

وكان الزعيم المرموق للكاديت هو ب . ن . ميليوكوف ، إذ شغل منصب رئيس اللجنة المركزية للحزب سنوات طويلة . كما كان رئيسا لتحرير جريدته الرئيسية « ريخ » (الكلمة) . وذلك بالإضافة إلى أنه كان يلعب دورا أساسيا فى المجموعة البرلمانية للكاديت ، حيث تحدث فى مناسبات كثيرة حول المسائل السياسية الرئيسيه . وكان ميليوكوف من قبل إستاذا مساعدا فى جامعة موسكو يقوم بتدريس تاريخ روسيا ، كما ألف عددا من الكتب الدراسيه الهامه من بينها « مقالات حول تاريخ الحضارة الروسيه » الذى طبع عدة طبعات . وقد تفرغ فى عام ١٩٠٥ للنشاط السياسى .

ورغم أن ميليوكوف كان ديماجوجيا متمرسا ذا طبيعة بيزنطيه لا يستغرب منها النفاق والمناورة ، فقد كانت له بغير شك بعض المبادىء التى يتمسك بها . فقد كان يؤمن مثلا بمميزات التطور الإصلاحى للتحول الاجتماعى ويؤثره على الطريق الثورى . وكان يرى أن الحكم الملكى هو المحور الذى يدور حوله النظام السياسى الروسى بأسره وكان يدعو دائما لقوميه الدولة الكبرى . كما كان يعتقد أنه يستحيل قمع الأفكار بالحراب ، أو وضع حد للثوره بالأساليب البوليسيه القديمه وحدها . وكان يحاول أن يواجه الأيدلوجيه الثوريه ، ولا سيما الماركسيه ، بمجموعه متشابكة من آرائه الخاصه . وكان يرى أن ماتحتاجه روسيا هو حكم القانون والنظام الرأسمالى ، والحق المؤكد فى الملكيه الخاصه والحضارة الاوربيه ، وليس الثورة أو الإشتراكيه . غير أن التاريخ قد بين أن هذا البديل للماركسيه كان مقضيا عليه بالفشل منذ البدايه فى روسيا الثوريه .

ولسنوات طويلة كان المنافس السياسي الرئيسي لميليوكوف في اللجنة المركزية للكاديت هو ف. ا. ماكلاكوف، وهو محام كبير، وعضو في ثلاثة من مجالس الدوما. وكان المفارقة شقيقا لأحد كبار موظفي القيصر وهو نموذج لليبرالي المعتدل. ويروى عنه أنه عندما كان طالبا حضر إحدى الحفلات الموسيقية ووقف وراء أحد الأعمدة لينشد المارسيليز، ثم عاد إلى الجلوس بهدوء حتى لا يتمكن رؤساؤه من رؤيته. ففي تلك السنوات كان النشيد الوطني لفرنسا الجمهورية ممنوعا رسميا في روسيا.

وكان من بين قادة الكاديت أيضا الإخوان دلجوركوف، وهما من أسرة من الأمراء القدامى، أسرة الأمير د. ا. شاخوفسكي وهو من الشخصيات البارزة في مجالس الدمستفو (الهيئات المحليـــة للحكم الذاتي) و ا. ا. بيترونكفيتش والمحامي م. م. فينافير. وكان من الشخصيات البارزة بين الكاديت بيوتر ستروف الذي بدأ حياته السياسية من «الماركسيين القانونيين»، بل إنه هو الذي كتب البيان التأسيسي لحزب العمال الاشتراكيين الديموقراطيين الروسي. غير أنه بدل موقفه بعد ذلك تبديلا كاملا تقريبا وأصبح قائدا للجناح اليميني في حزب الكاديت.

أما الأكتوبريون فقد كان شعارهم الاحتفاظ بالإمبراطورية الروسية «موحدة ومتكاملة»، وإقامة نظام ملكي قوي وكانوا بوصفهم إصلاحيين بورجوازيين يدعون إلى منح الفلاحين جميع الحقوق المدنية. وأيدوا الإصلاح الزراعي الذي وضعه ستوليبين، واعترفوا بحق النقابات في الحرية والاضرابات الإقتصادية، وإن كان اعترافهم مشوبا ببعض التحفظات. وأثناء الفترة الرجعية كان الأكتوبريون يتحركون في مجلس الدوما كالبندول، فيتجهون حينا نحو «السود المائة» وحينا آخر نحو «الكاديت». وقد مكنوا الحكومة القيصرية

من إصدار قوانين ذات طابع رجعي ساخر أو تتستر وراء نكهة ليبرالية بما يتفق مع روح العصر .

ونظرا لإزدياد التوتر السياسي بوجه عام في السنوات السابقة على نشوب الحرب في روسيا ، لم يلبث معسكر الاوكتوبريين أن تبدد إذ هجرته العناصر اليسارية واليمينية ، وشكلت البقية مجموعة للأكتوبريين داخل مجالس الزمستفو . واتخذت هذه المجموعة مواقف أكثر يسارية عما كانت من قبل ، وإن كانت قد استمرت في تأييد الحكومة في جميع المسائل الجوهرية .

وكانت أبرز شخصية بين الاوكتوبريين هي شخصية ا . ا . جوشكوف ، وهو ينحدر من أسرة من ملاك مصانع النسيج والماليين في موسكو . وكان وطنيا متعصبا ، يتميز بقوة العزيمة والإتجاه إلى المغامرة وكان عنيد الرأي ، يطيع غرائزه طاعة عمياء . وقد وصفه أحد معاصريه بأنه أستاذ المؤامرات وعبقري المخادعة . وقد بدأ عمله العسكري كمتطوع في آسيا الوسطى ، وعندما قامت حرب البوير توجه إلى أفريقيا ، ومنها انتقل إلى الشرق الأقصى . وقد طرد من الجيش بفضيحة عندما كان بدرجة رائد . ومع ذلك كان جوشكوف يعتبر نفسه خبيرا في المسائل العسكرية ، وكانت له شعبية كبيرة بين الضباط . وقد رأس في مجلس الدوما لجنة الدفاع ، وتمكن من الإطلاع على كثير من الأسرار العسكرية . وفي عامي ١٩١٠ و ١٩١١ أصبح رئيسا لمجلس الدوما الثالث وبين عامي ١٩١٥ و ١٩١٧ رأس اللجنة المركزية للصناعات الحربية . وقد انضم إلى الحكومة المؤقتة الأولى في مارس ١٩١٧ كوزير للحرب والبحرية .

وقد كشف لينين ببراعة عن الجوهر الحقيقي للأكتوبريين عندما قال « إن الأكتوبري النموذجي ليس مثقفا بورجوازيا بل هو بورجوازي كبير فهو . ليس إيديولوجي المجتمع البورجوازي بل هو سيده الحقيقي .

ولما كانت له مصلحة مباشرة فى الاستغلال الرأسمالى فإنه يحتقر جميع النظريات ويتعالى على الانتلجنسيا المثقفين — أهل الفكر) ، وعلى خلاف الكاديت يرفض أى إدعـاء بالديموقراطية . فهو رجـل أعمال بوجوازى »[1] .

وفى عام ١٩١٢ أخذ الصناعيون فى الإقليم الاوسط من روسيا ، ولاسيما موسكو ، على عاتقهم مهمة إنشاء حزب بورجوازى آخر ، أطلقوا عليه اسم الحزب التقدمى ، وأصبح يسمى حزب التقدميين على سبيل الاختصار . وكان المقصود هو تشكيل حزب من كبار رجال الأعمال غير متأثر بأى نفوذ خارجى . وكان التقدميون يعبرون عن مصالح كبار الرأسماليين بشكل اكثر صراحة ومباشر عن الاكتوبريين . وكانوا ينفرون من النفوذ القوى لملاك الأراضى فى اتحاد ١٧ أكتوبر لان ذلك النفوذ كان يعوق سعيهم للعمل بشكل متصل لتنفيذ الاحكام الأساسية فى بيان ١٧ أكتوبر . وكان التقدميون يريدون حكومة قوية لكسب أسواق جديدة للصناعة الروسية ، وذلك أولا وقبل كل شيء فى الشرقين الادنى والأوسط وكانوا يدعون إلى النضال بقوة ضد سيطرة رؤوس الأموال الأجنبية على الاقتصاد الروسى ، وإلى قيام حكومه مسؤولة أمام الدوما ، وتوسيع سلطه مجالس الدوما على المجالس المحليه للحكم الذاتى . وكانوا يعتقدون أن الاداة الرئيسيه للضغط على الحكومه هى تشكيلة كتلة من الاحزاب البورجوازيه والملاك فى الدوما فهذه الكتلة إذ تهدد بوأد مشروعات الميزانيه التى تقدمها الحكومه يمكن أن تلزمها بالموافقه على ما تريده من إصلاحات . وكان التقدميون على استعداد لان يستخدموا فى مقاومتهم السياسيه الاحزاب اليساريه ذاتها فى ذلك البلاشفه ، باعتبارهم من وسائل الضغط على الاوتوقراطيه . وكانت أبرز شخصيه بين صفوف

الحزب التقدمى ا . ا . كونوفالوف رئيس إحدى شركات النسيج الكبرى فى موسكو والتى يبلغ رأسمالها ٧ ملايين روبل . وكان نموذجا للرأسمالى المتعلم المجتهد من أبناء « الجيل الجديد » . ومن الامور ذات الدلالة أنه أصبح بعد ثورة فبراير وزيرا للتجارة والصناعه ونائبا لرئيس الوزراء فى الحكومه المؤقته .

ومن الشخصيات البارزة الأخرى فى الحزب ب . ب . ريابوشينسكى ، وهو واحد من ثمانيه أخوة من إحدى الأسر المعروفه فى روسيا باهتمامها بالصناعه والبنوك ، وهى منحدرة من أغنياء الفلاحين . وكانت الأسرة تملك مجموعه مصانع فى مجال الصناعات الخفيفه والثقيلة على السواء ، وقد شرعت فى إنشاء مصنع المحركات كان من أوائل هذه المصانع فى روسيا ، وكان لها دور ملموس فى كثير من منظمات البورجوزيه النشيطه وتصدر جريدة معروفه باسم « أوترو روسى » (صباح روسيا) وأصبح ب . ب . ريابوشينكى الزعيم المعترف به للبورجوازيه الروسيه المعاديه للثورة قبيل ثورة أكتوبر .

وهكذا تبين الحقائق أنه ليس ثمه مايدعو للانتقاص من قوة وتنظيم البورجوازيه الروسيه . فقد مثلتها منظمات عديدة وأحزاب سياسيه وساسه مهرة وعلى قدر كبير من الكفاءة . ولكن نظرا للوضع الواقعى للبورجوازيه فى الهيكل الاجتماعى للبلاد ، واعتمادها المستمر على القيصريه ، كانت عاجزة وغير راغبه فى أن تصبح ثوريه ، أو أن تشكل قوة مستمرة للمعارضه إذ كانت تمزقها الخلافات الداخليه ، وتمارس أساليب الاستغلال البدائيه والفجه . كما كانت تنقصها الخبرة اللازمه فى الإفساد السياسى للطبقه العاملة والقدرة على المناورة الاجتماعيه . وأدى ذلك كله إلى ضعف البورجوازيه الروسيه وعدم قدرتها على أن تخلف القيصريه فى إدارة دفه الدولة . ولذا فمند الإطاحه بالإوتوقراطيه اتخذت روسيا سبيلا مخالفا تماما وأسلمت مستقبلها للحزب الذى قاد معسكر الديموقراطيه البروليتاريه والفلاحين ، حزب البلاشفه ولم تسلمه للساسه البورجوازيين .

كانت البروليتاريا أكثر طبقات المجتمع الروسى تقدما ، ولذا كان من الطبيعى أن تكون أول طبقة تنشىء طليعتها السياسية — الحزب الاشتراكى الديموقراطى للعمال الروس — منذ عام ١٨٩٨ . ولم تكن النظرية الماركسية معروفة فى أواخر القرن التاسع عشر الإبين حلقة ضيقة جدا من المثقفين الديموقراطيين والعمال المتقدمين . وفى البداية كانت الحركة التلقائية للطبقة العاملة للاحتجاج على القهر الرأسمالى موجودة بصورة يمكن أن تقال إنها متوازية مع وجود الماركسية غير أن الاشتراكية العلمية بدأت تندمج فى حركة الطبقة العاملة فى روسيا منذ عام ١٨٩٠ . وكان ذلك تطورا سريعا ومشجعا جدا ، يرجع فى جانب كبير منه إلى « عصبة النضال من أجل تحرير الطبقه العامله » التى أنشأها الماركسى الروسى الشاب ف . ا . أوليانوف (لينين) فى سان بطرسبرج فى عام ١٨٩٥ . وقد نشأت تنظيمات مماثله فى المدن الروسيه الأخرى ومهدت الطريق لقيام حزب اشتراكى ديموقراطى يستند إلى نظريه الماركسيه الثوريه .

غير أن حزب الطبقه العامله بقى بغير برنامج خاص به حتى صيف عام ١٩٠٣ ، كما لم تتوافر له الوحدة الأيدلوجيه اللازمه . وكانت التنظيمات الاشتراكيه الديموقراطيه صغيرة ومنعزله . ولم يكن لديها الكفايه من الافراد أو الاموال للقيام بالعمل الحزبى ، كما كان من اللازم التغلب على عـــدم إيمان بعض الاشتراكيين الديموقراطيين بالإمكانيات الثوريه للطبقه العامله ومحاولتهم قصر حركتها على الاغراض الاقتصاديه الخالصه الراميه إلى تحسين حالة البروليتاريا . وكانت الجريدة الماركسيه « إسكرا » (الشرارة) التى صدرت فى الخارج هى التى ساعدت فى التغلب على الفوضى التنظيمية والتردد الايدلوجى بين صفوف الاشتراكيه الديموقراطيه الروسيه الوليدة .

وكان لينين هو مؤسس هذه الجريدة ، إذ سافر إلى الخارج فى عام ١٩٠٠ بعد أن قضى أربع سنوات فى السجن والنفى الداخلى على أثر القضية الخاصة بعصبة سان بطرسبرج للنضال من أجل تحرير الطبقة العاملة . وقد قام لينين أثناء وجوده فى الخارج بعمل هائل يضم صفوف جميع القوى الثورية الحقة فى حركة الطبقة العامله الروسيه . وقد ساهم مع لينين فى مجلس تحرير جريدة « إسكرا » بعض الماركسيين البارزين وفى مقدمتهم ج . ف . بليخانوف . ودعت الجريدة إلى عقد المؤتمر الثانى للحزب ، وقامت بتنظيمه فى صيف عام ١٩٠٣ . وكان هذا المؤتمر بداية مرحلة جديدة فى تطور حركة الطبقة العامله وحركة الإشتراكيه الديموقراطيه فى روسيا .

وفى المؤتمر حدث إنقسام بين مؤيدى إسكرا أى الماركسيين الثوريين المخلصين الذين تبعوا لينين ومختلف العناصر المترددة الإنتهازية التى ابتعدت عن الماركسيه فى كثير من المسائل النظريه والعمليه . وحصل أنصار لينين على أغلبيه الأصوات فى الانتخاب للأجهزة المركزيه للحزب ، وأصبح يطلق عليهم منذ ذلك الحين اسم البلاشفه (من الكلمه الروسيه « بولشيفستفو » أى الأغلبيه) وهم لم يدعوا أبدا إلى تقسيم المنظمات الحزبيه ، بل سعو على العكس إلى العمل الجماعى الرفاقى بين الإشتراكيين الديموقراطيين بشرط إطاعه جميع أعضاء الحزب لإرادة الأغلبيه . غير أن معارضيهم الذين أصبحوا يعرفون باسم المناشفه (من الكلمه الروسيه « مينشيفستفو » أى الاقليه) شنوا حمله شعواء من أجل تفكيك روابط الاجهزة الحزبية القائمه، ولجأوا إلى أساليب لا يمكن أن تتفق مع الاصول الحزبيه . وترتب على ذلك إنقسام الإشتراكيه الديموقراطيه الروسيه إلى حزبين متوازيين ، البلاشفه والمناشفه وقد بذلت محاولات لم تنجح للعودة إلى الوحدة فى الفترة بين ١٩٠٦ و ١٩١١ ، وانفصل أحدهما عن الآخر إنفصالا كاملا فى عام ١٩١٢ .

وكان قيام الحزب البلشفى (الذى أصبح الآن الحزب الشيوعى للإتحاد السوفيتى) فى عام ١٩٠٣ حدثا هاما لافى تاريخ حركة الطبقة العاملة الروسية وحدها بل وفى تاريخ حركة الطبقة العاملة العالمية أيضا . فعلى خلاف أحزاب الدولية الثانية التى كانت غير واضحة الشكل من الناحية التنظيمية وتعانى من الخلافات الايدلوجية ، والتى اتجهت لشكل متزايد إلى قصر عملها على الطريق السلمى البرلمانى للنضال من أجل الإشتراكيه ، أصبح البلاشفه اللبنينيون تنظيما متينا ذا مركزيه دقيقه يضم مناضلين تجمع بينهم آراء موحدة ومستعدين لخوض المشاق بل والموت من أجل الثورة والمثل العليا للشيوعيه .

وكانت المنظمات البلشفيه داخل روسيا تعمل فى الخفاء وبسريه كامله بحكم الضرورة . وكانت تختار أعضاءها بعناية وتلتزم بالإنضباط الحزبى بدقه وأوضح البرنامج الأول للحزب البلشفى الذى أقره المؤتمر الثانى للحزب الإشتراكى الديموقراطى للعمال الروس أن هدف الطبقه العامله هو الثورة الإشتراكيه وديكتاتوريه البروليتاريا ، وإقامه مجتمع اشتراكى . وفى الوقت ذاته كانت المهمه الأوليه للحزب هى النضال للإطاحه بالنظام الأوتوقراطى وتطبيق الديموقراطيه الكامله فى أنحاء البلاد . وكان ذلك يشمل إقامه جمهوريه ديموقراطيه ، وتطبيق الحريات المدنيه ، وحق الاقتراع العام ، والمساواة الكامله بين جميع القوميات ، والاعتراف بحقها فى أن تقرر مستقبلها بحريه بما فى ذلك الانفصال عن روسيا . كما تضمن البرنامج المطالبه بيوم العمل المؤلف من ٨ ساعات ، وحريه الإضراب ، وتشكيل النقابات ، والتأمين الاجتماعى وتحسين ظروف الحياة والعمل للعمال .

ووجه البلاشفه أيضا اهتماما كبيرا للقضاء على جميع بقايا نظام الرق فى الزراعه . وكانوا يرون دائما أن الفلاحين هم أقرب الأصدقاء والحلفاء للطبقه العامله فى النضال ضد الأوتوقراطيه وكان ذلك هو السبب فى أنهم طالبوا أولا

بإعادة الأراضى التى انتزعت من الفلاحين بالقوة بعد الإصلاح الذى طبق فى عام ١٨٦١ . وفى عام ١٩٠٥ أضيف بند آخر إلى البرنامج يدعو إلى تسليم الفلاحين الكادحين جميع الأراضى المملوكة للنبلاء والكنيسة والحكومة والأسرة المالكة دون مقابل . وفى عام ١٩٠٦ قـــدم لينين برنامجا لتأميم جميع الأراضى باعتبار ذلك أفضل السبل للقضاء على جميع بقايا القرون الوسطى وإيجاد الظروف اللازمة للتطور المستمر للزراعة التى يقوم بها الفلاحون بمنأى عن الملكيات الكبيرة للنبلاء .

ويظهر من ذلك أن برنامج البلاشفة للمستقبل القريب لم يكن يرمى إلى القضاء على الرأسمالية ، بل كان يرمى إلى إزالة جميع العقبات من طريق تطورها . وقد اهتدى الماركسيون الروس فى هذا الصدد إلى حد ما بالمسلك الذى سار فيه التطور الصناعى والزراعى فى الولايات المتحدة فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر . ولم يفقد البلاشفة فى الوقت ذاته تطلعهم إلى المستقبل الإشتراكى لحركة الطبقه العاملة . ولم يكونوا على استعداد أبدا لتأجيل الثورة البروليتاريه فى روسيا إلى مالا نهايه لمجرد أن البلاد كانت لاتزال متخلفه فى تطورها الاقتصادى عن الدول الرأسماليه الغربيه الرئيسيه . وعلى العكس من ذلك كان البلاشفه على يقين من أن الدور القيادى للطبقه العاملة فى النضال لتحرير روسيا من الاستعباد للأتوقراطيه ، سيؤدى بعد الانتصار على القيصريه إلى تمهيد الطريق لاستمرار تطور الثورة وانتقالها إلى مرحله جديدة هى مرحله الكفاح من أجل الإشتراكيه . وكان البلاشفه يعتقدون أن الثورة البورجوازيه الديموقراطيه فى روسيا يمكن أن تتحول بالتدريج إلى ثورة اشتراكية ما دامت تتوافر فى البلاد الشروط المادية الموضوعية لبدء التعمير الإشتراكى وكان من الشروط الجوهرية الأخرى لتحقيق ذلك ، قيام تحالف وثيق بين الطبقه العاملة

وفقراء الفلاحين والفئات شبه البروليتارية من سكان المدن . وتأييد البروليتاريا الدولية . والواقع أن لينين وصل فى عام ١٩١٥ إلى استنتاج على أكبر قدر من الأهمية عندما قال إن الثورة البروليتارية يمكن أن تنتصر أولا فى بلد واحد تكون التناقضات الامبريالية فيه قد وصلت إلى درجة عالية من الحدة بحيث تكون الطبقة العاملة وحزبها الماركسى قد اكتسبا قوة أكبر من مثيلتها فى أى مكان آخر ، تمكنهما من خوض نضالا عنيداً ضد البورجوازية . وقد أصبحت روسيا فى عام ١٩١٧ ذلك البلد .

وكان البلاشفة يهتدون بالنظرية الماركسية التى طورها لينين وأثراها وطوعها للظروف القائمة فى مطلع القرن العشرين . وقد قادوا نضال البروليتاريا الروسية أولا خلال ثورة ١٩٠٥ — ١٩٠٧ ، ثم فى ثورة فبراير ١٩١٧ التى وضعت حدا للأوتوقراطية القيصرية ، وأخيرا فى ثورة اكتوبر الإشتراكيه العظمى .

وكان من نواحى القوة المميزة للبلشفيه ومن مصادر تفوقها على الأحزاب الإشتراكيه الأخرى فى تلك الأيام الوحدة بين النظريه والتطبيق . فلم يكن لدى البلاشفه أبدا تلك الفجوة القاتلة بين القول والعمل والتى كانت من السمات المميزة للدوليه الثانيه . فقد قادوا إضرابات الطبقه العاملة ودفعوها للقيام بانتفاضه مسلحه ضد النظام الاستبدادى . وقاموا بقدر كبير من التوعيه السياسيه فى المدينه والريف ، وبذلوا نشاطا ملموسا فى النقابات التى تشكلت أثناء الثورة الروسيه الاولى ، كما استخدموا مجلس الدوما ببراعه للأغراض الثوريه ، وكانوا ، دائما فى طليعة الصراع الطبقى وفى وسط جماهير الشعب . وكانوا الحزب الثورى الوحيد فى روسيا الذى قدم للجماهير برنامجا بناء لتجديد شباب للبلد وحل جميع مشاكل الحياة الحادة والمؤلمه .

وكان فى وسع المرء أن يلتقى بالبلاشفه فى أحياء العمال فى أطراف المدن

وفى القرى النائيه ، وفى قاعات الكليات والجامعات ، وفى ثكنات الجيش القيصرى . وكان الحزب مرتبطا بالشعب ارتباطا لاينفصم . وهدنه الأسمى ومهمته الرئيسيه هى النضال من أجل المستقبل المشرق للطبقات « الدنيا » العريضه . واستمد البلاشفه قوتهم من ارتباطهم بالشعب وبالطبقه العاملة فى المقام الأول ومن هذه الطبقه جاء أشجع وأقوى وأوعى المناضلين من أجل قضيه الثورة . وفى عام ١٩٠٥ كان العمال الصناعيون يمثلون نحو ٦٠ ٪ من أعضاء التنظيمات البلشفيه . كما انضم إليها خيرة ممثلى الانتلجنسيا الديموقراطيه والفلاحين الكادحين ، وأناس من الطبقه الوسطى فى المدن . ورغم أن الحزب البلشفى لم يكن كبيرا بشكل خاص قبل ثورة اكتوبر ، فإن الوحدة الوثيقه بين صفوفه وروح الإيثار الكامل لدى جميع أعضائه جعلت من حزب الشيوعيين الذى أنشأه لينين أخطر الأعداء السياسيين للقيصريه والبورجوازيه .

وكان الحزب البلشفى وليد فكر لينين بالمعنى الكامل للكلمه . فقد كان لينين من عباقرة الفكر الثورى ، ومنظما قديرا وخطيبا وصحفيا بارزا . وقد ولد من أسرة نبيلة ولكنه كرس حياته من سن ١٧ عاما للحركة الثوريه والنضال من أجل تحرير الطبقه العامله من الاستغلال والاضطهاد وكرس حياته بأسرها للنضال من أجل إنتصار المثل الشيوعيه وسعادة الجماهير العاديه . ويمكن أن يوضع لينين على قدم المساواة مع أكبر الثوريين فى التاريخ . بل إنه يفوقهم بما لا يقاس لانه بلغ قمم الماركسيه وهى أكثر النظريات الإجتماعيه تقدما فى هذا العصر ، وأسس الحزب الماركسى الثورى للطبقه العامله والذى أصبح أداه فعالة لإحداث التغيير الاجتماعى الجذرى .

وكان لينين هو الوحيد الذى أدرك بالكامل التغيير الجوهرى الذى طرأ على الأوضاع الاقتصاديه والاجتماعيه والسياسيه للعالم قرب انتهاء القرن ، وقدر

نتائج هذا التغيير والآفاق الجديدة التى فتحها أمام الطبقة العاملة . وعندما انضم لينين إلى الحركة الثوريه ، كسبت الماركسيه الثوريه التى كان انتهازيو الدوليه الثانيه يشوهونها ، منبعا عظيما للأفكار . وأصبح لدى الحزب البروليتارى منظم وقائد موهوب وذو قوة معنويه لم يعرفها التاريخ من قبل .

ومن ناحيه الشكل الخارجى فليس فى لينين أدنى شبه من القائد من طراز سوبرمان ، فهو متوسط القامه ، أميل إلى الإمتلاء له جبهه عريضه من طراز جبهه سقراط ، وعينان مغمضتان قليلا ولحيه صغيرة رماديه اللون . وكانت أبرز صفاته البساطه الخاليه من أى تكلف أو إدعاء ، وكان لذلك أثره الهائل على الجماهير الكادحه . وكان العمال يقولون عنه بحب واحترام : « إنه رجلنا » . وكانت هاتان الكلمتان تنطويان على أعظم الثناء والتقدير ، وهما ضروريان للقائد السياسى الذى يكرس حياته بأسرها لخدمة الجماهير العامله . ولينين مدين بمكانته كزعيم للمكانه الذهنيه وحدها ، والتى كانت تجمع بين الثقافه الموسوعيه الشامله ، والمنطق الواضح الصافى والبصيرة النادرة . ومازال التراث الفكرى للينين يدهشنا حتى اليوم بأفكاره الملهمه ، ونفاذ نظرته الجدليه ، وحماسته وتفاؤله . وتكمن قوة لينين فى قدرته على الرؤيه لمدى أبعد من الآخرين ، والفهم بصورة أعمق وأسرع ، والتعبير عن أفكاره بشكل أوضح وأدق وكان لينين يعرف كيف يحدث الناس عن أمور شديدة التعقيد دون حاجة إلى إشارات مسرحية أو حركات مصطنعة بل بعبارات بسيطة واضحة . وكان الجمهور الذى تأسره وتسحره تلك الحكمة العميقة البسيطة يستمع إلى زعيم الثورة بأنفاس لاهثة ، غير مكتف بأن يستمد من كلماته برنامجا للعمل ، بل ويستمد منها أيضا ثقة عميقة بأن هذا هو البرنامج الوحيد الكفيل بتحقيق النصر .

وتكمن قوة البلاشفة فى أنه كان لدى الحزب قادة مرموقون آخرون يعملون

إلى جانب لينين وتحت قيادته المباشرة ، وقد اجتازوا امتحان الثورات الروسية الثلاث . وبعد انتصار ثورة أكتوبر نجحوا فى تولى القيادة فى جميع مجالات الحياة فى أول دولة اشتراكية فى العالم . وبين هؤلاء الزعماء عمال وفلاحون من جميع الجنسيات الرئيسية المقيمة فى روسيا : الروس والأوكرانيون واليهود والأرمن والجورجيون واللاتفيون وغيرهم .

ولم يبق كل من سار مع لينين على طريق ثورة أكتوبر مخلصا لأفكاره ونواياه . فبعض زملائه السابقين سقطوا على الطريق فى المنحنيات الحادة للتاريخ ، بل وتحول بعضهم إلى أعداء سياسيين . لكن ذلك يضاعف من المأثرة البطولية التى حققها لينين ومن ساروا معه حتى وصلوا إلى الهدف العظيم .

وقد عبر الحزب البلشفى عن مصالح الطبقة العاملة وسائر الجماهير الكادحة بشكل أكمل وأدق من أى جهة أخرى . وأصبح البلاشفة بحق قادة الطبقة العاملة . ويعتبر نشاطهم الخلاص متعدد الجوانب لمصلحة الشعب أفضل تجسيد للدور القيادى للطبقة العاملة فى الصراع من أجل تحرير روسيا من القهر الاستبدادى الأوتوقراطى والاستغلال الرأسمالى . وكان عملهم ضروريا لتمكين الطبقة العاملة من النهوض برسالتها التاريخية بوصفها قائدة للنضال الثورى .

وكان المعارضون الفكريون الاساسيون للبلشفية فى حركة الطبقة العاملة هم المناشفة . فقد كانوا مجموعة انتهازية تضم مثقفى البورجوازية الصغيرة ذوى الأفكار الراديكالية وبعض عمال الصناعة . وكان هؤلاء كقاعدة عامة ، من الفئة ذات المهارة العالية والتى تحصل على أجر مرتفع من بين الجماهير الكادحة . وكان للمناشفة أنصار فى كل من سان بطرسبرج وموسكو وأوديسا وروستوف على الدون ومناطق روسيا الغربية ومناجم الفحم فى الدونيتز وفى الترانسقوقاز وعدة مناطق أخرى . ولكن من الامور ذات الدلالة أنه لم يكن هناك فى عام

١٩١٤ غير نحو الخمس من العمال الواعين سياسيا يؤيدون المناشفة ، بينما كان البلاشفة يتمتعون بتأييد الغالبية العظمى من الطبقة العاملة .

ورغم أن كلا من البلاشفة والمناشفة كان يهتدى رسميا بنفس البرنامج الماركسي ، فقد كانا قائمين كحزبين مستقلين منذ البداية ، لكل منهما مراكزه التنظيمية ومطبوعاته وعقائده الاستراتيجية والتكتيكية . كما كان البلاشفة والمناشفة مشتبكين في نضال إيدلوجى حاد حول جميع المسائل الجوهرية في السياسات الوطنية .

وإذا تغاضينا مؤقتا عن التذبذب المستمر الذى ميز المنشفية كتيار سياسى ، فإن عقيدتها يمكن أن تلخص في أنهم ينكرون إمكان قيام الثورة الإشتراكية في المستقبل القريب في بلد كروسيا التى يعتبرونها متخلفة من جميع النواحى . وبناء على ذلك فقد علقوا آمالهم على التطور الحر للبلاد على أسس رأسمالية بوصفها جمهورية برلمانية بورجوازية . وكانوا يعتقدون أن هذه العملية عملية طويلة ، وأنه ستنشأ خلالها وعلى إمتداد بضعة عقود الشروط الموضوعية والذاتية اللازمه للانتقال إلى الاشتراكيه .

وربط المناشفه بين القضاء على بقايا الاقطاع وإعادة تنظيم البلاد على أسس ديموقراطيه ، وبين قيام ثورة بورجوازيه من النمط « الكلاسيكى » لأوربا الغربيه في الفترة بين القرنين السابع عشر والتاسع عشر . وبينما كانوا يتشدقون بالايمان بقيادة الطبقه العامله للحركه الثوريه ، كانوا يرون أن ذلك الدور لايعدو أن يكون دورا مؤقتا ، والأهم من ذلك أنه دور مفروض على هذه الطبقه بحكم الظروف . فهو في رأيهم نابع من ضعف البورجوازيه لامن قوة البروليتاريا . ولذا كانوا يتطلعون إلى ظهور حزب بورجوازى قوى في روسيا (وكان الكاديت أقرب الأحزاب إلى النموذج الذى يتطلعون إليه) يكون من حقه أن

يقود حركة التحرر من الأوتوقراطية . أما الفلاحون ، فمن الواضح أن المناشفة قللوا من دورهم فى الثورة ، وأبرزوا الجهل السياسى للفلاحين وسيطرة عقلية صغار الملاك عليهم .

ووجه المناشفة إهتماما كبيرا للأشكال القانونية لحركة الطبقة العاملة ، ولاسيما الاضرابات الاقتصادية . وعارضوا الاستعداد للانتفاضة المسلحة وبنو آمالهم على التنظيمات العالية كالنقابات والجمعيات التعاونية ، وأشادوا بدور مجلس الدوما باعتباره مركز للحياة السياسية الوطنية .

وتميزت المنشفيه بالميل إلى الحلول الوسط فى السياسه ، وتقديس الحركات الجماهيريه التلقائيه ، والانتقاص من دور الحزب البروليتارى وهم يرون هـــذا الحزب (وكان ذلك بدايه خلافاتهم مع البلاشفه فى المؤتمر الثانى لحزب العمال الاشتراكى الديموقراطى الروسى فى ١٩٠٣) على أنه تجمع غير محدد الشكل لخلايا ومجموعات متعددة لايربط بينها انضباط قوى أو وحدة إيدلوجيه . وكان من رأيهم أنه يجوز أن تضم تلك المجموعات إلى جانب الثوريين المؤمنين العناصر الميالة إليهم والعاطفه على الثورة . وبذلك سعى المناشفه إلى تحويل الطبقه العاملة إلى تابع للحركه البورجوازيه الليبيراليه ، وحدوا من نطاق النضال البروليتارى وأضعفوا حماسته . وبذلك عملوا فى الواقع على تباطؤ العمليه الثوريه سواء أرادوا ذلك أم لم يريدوه .

وأصبحت سمات المناشفه هذه أكثر وضوحا بعد هزيمه الثورة فى ١٩٠٥ ـــ ١٩٠٧ ، عندما تخلى المناشفه اليمينيون عن النضال الثورى وعن الحزب الثورى السرى للطبقه العامله ذاته ، وبذلك اكتسبوا اسم « أنصار التصفيه » . وقد أنكر هؤلاء المرتدون ديكتاتوريه البروليتاريا والتحالف مع الفلاحين ، ودعوا إلى الأفكار القوميه الخالصه . واتخذ بعضهم موقفا توفيقيا تجاه سياسات « أنصار

التصفيه ، ولم يكن منهم غير فريق ضئيل سمى بالمناشفه ذوى الاتجاه الحزبى ، وقفوا مع البلاشفه فى سعيهم للاحتفاظ بمنظمات الحزب السريه وبقوا على ولائهم للتراث الاشتراكى الديموقراطى .

ولعب بين المناشفه دورا خاصا التروتسكيون الذين كانوا يجمعون بين ماهى بالاتجاهات الثورية المتطرفه وبين عدد من المبادىء الاستراتيجيه المميزة المنشفيه . فقد أنكروا مثلا دور الفلاحين كحليف للطبقه العامله ، وكانوا شديدى التشاؤم بالنسبه للشروط الداخليه للثورة البروليتاريه وعلقوا آمالهم جميعا على المساعدة من جانب الطبقه العامله الدوليه وما إلى ذلك . غير أن آراء تروتسكى[1] لم يكن لها فى أى وقت انتشار واسع فى حركه الطبقه العامله الروسيه .

وأبرز الشخصيات وأشـــدها تناقضا فى معسكر المناشفه هو ج . ف . بليخانوف الذى كثيرا مايوصف فى دول الغرب بأنه « أبو الماركسيه الروسيه » . وهو من النبلاء ، وكان يملك مزرعه صغيرة فى محافظة دامبوف ، وبدأ عمله الثورى فيما بعد عام ١٨٧٠ بوصفه من أنصار حزب « الشعب » وصاحب أفكار فوضوية . غير أنه اقتنع فيما بعد عام ١٨٨٠ بأن نظريه « الشعبيه[2] وأعمالها

---

(١) ليون تروتسكى (برونشتاين) (١٨٧٩ — ١٩٤٠) إنضم إلى الحركه الاشتراكيه الديموقراطيه فى عام ١٨٩٧ . وكان من المناشفه ثم اتخذ موقفا وسطيا . وقد قبل فى صفوف الحزب البلشفى فى صيف ١٩١٧ وأصبح عضوا فى المكتب السياسى للجنه المركزية للحزب فى الفترة بين ١٩١٧ و ١٩٢٦ . وقد عارض خط الحزب فى أكثر من مناسبه وكان ذلك مدعاة لأن يوجه إليه لينين إنتقادا شديدا . وفى عام ١٩٢٧ فصل من الحزب وأرسل إلى المنفى .

(٢) كانت الشعبيه » إيديولوجيه المثقفين من غير ملاك الاراضى ، وقد انتشرت فى المرحله البورجوازيه الديموقراطيه للنضال التحريرى فى روسيا (١٨٦١ - ١٨٩٥) وكان الشعبيون (النارودنيون) يرون أن الفلاحين هم القوة الثوريه الرئيسيه ، وينكرون الدور الحاسم للبروليتاريا فى النضال الثورى ، كما يعتقدون أن التاريخ يصنعه « الابطال » بينما تتبعهم « الجماهير » تبعيه عمياء .

التطبيقية لامستقبل لها ، فتخلى عنها واعتنق الأفكار الماركسية . وأصبح بليخانوف من الأفراد النشيطين فى ترويج الماركسية ، ومن المفكرين النظريين الماركسيين البارزين . وكان ذا شخصية محددة وإرادة قوية تجمع بين الإطلاع الواسع وموهبة المجادلة والإقناع والمهارة الصحفية والاخلاص الصادق والعميق للطبقة العاملة ، وكان بليخانوف موهوبا على الأخص كفيلسوف ماركسى . غير أنه كانت لديه أيضا خصائص ذاتية كالغرور الزائف والميل إلى الديكتاتورية والتى ظهرت بشكل أوضح خلال السنوات السبع والثلاثين التى قضاها مهاجرا عندما انقطع عن الممارسة اليومية للنضال الثورى للبروليتاريا الروسية . وترتب على ذلك أن تدهورت بالتدريج مكانة بليخانوف كشخصية سياسية وكقائد للاشتراكية الديموقراطية الثورية . وبدأت تظهر فى تفكيره بشكل متزايد العقيدية الجامدة والميل إلى الفلسفة المدرسية . ورغم أنه تعاون مع لينين تعاونا وثيقا فى السنوات الاولى للقرن العشرين فقد انضم فى أواخر ١٩٠٣ إلى المناشفة غير أنه شغل مكانا خاصا إلى حد ما بين صفوفهم ، وناضل بقوة ضد « أنصار التصفية » بل وأيد البلاشفة فى بعض الأحيان . لكن بليخانوف كان ينجذب فى آرائه الأساسية نحو المناشفة ، وبدا ذلك واضحا خلال الحرب العالمية الأولى ، وعلى الأخص فى عام ١٩١٧ عندما رفض ثورة أكتوبر .

وكان الزعيم المعترف به للمناشفة هوى . أ . تسيدرباوم الذى اشتهر باسمه الأدبى المستعار . ل . مارتوف . وهو ينحدر من أسرة من التجار وانضم إلى الحركة الاشتراكية الديموقراطية فى مطلع شبابه . ولاشك فى أن مارتوف كان صحفيا موهوبا رغم افتقاره إلى العمق ، فكان شديد التحيز فى أحكامه . وتميزت كتابات مارتوف فى مجادلاته مع البلاشفة دائما بدرجة من الهستيريا والحقد والعداء الشخصى للينين .

وكذلك كان أعضاء « البوند » ، الاتحاد العام للعمال اليهود فى ليتوانيا وبولندا وروسيا ، على اتصال وثيق بالمناشفه . وقد تشكل « البوند » فى ١٨٩٧ وانضم فيما بعد إلى الحزب الاشتراكى الديموقراطى للعمال الروس . وكان أعضاؤه يدعون إلى القوميه والانفصاليه فى حركه الطبقه العاملة وأخذوا بالمواقف الانتهازيه .

وكان حزب « الاشتراكيين الثوريين » الذى تشكل فى أواخر ١٩٠١ وأوائل ١٩٠٢ يزعم أن له القيادة الفكرية والسياسيه لحركه الفلاحين . وكان الاشتراكيون الثوريون يزعمون انهم خلفـــاء « الشعبيين » الثوريين فى السبعينات . وكان « الشعبيون » هم أول من حاول تحريك الفلاحين للنضال ضد القيصريه ، ولكنهم لم ينجحوا . وقد تحولوا بعد ذلك إلى الأعمال الارهابيه ضد كبار الموظفين القيصريين ، وقاموا فى ١٨٨١ باغتيال القيصر اسكندر الثانى .

وكان الاشتراكيون الثوريون يشيدون بالفلاحين الكادحين من جميع النواحى . ويدخلون فى هذه الفئه جميع الفلاحين الذين يزرعون أراضيهم بأنفسهم دون استخدام عمال مقابل أجر . وكانوا يزعمون أن الفلاحين هم حفظة المثل العليا الاشتراكيه . ويرون أن الفلاحين ، الكادحين والعمال والمثقفين ذوى الفكر الديموقراطى يشكلون مجموعا واحدا يطلق عليه اسم « الشعب » وهم يشاركون فى الثورة باسمه .

ولما كان الاشتراكيون الثوريون يجمعون بصورة انتقائيه بين أفكار « الشعبيه » التى عفا عليها الزمن وبين مقتطفات من الماركسيه ، فقد أخطأوا فى النظر إلى حركه الفلاحين ضد ملاك الاراضى ، التى كانت فى جوهرها حركه بورجوازيه ، واعتبروها نضالا من أجل الاشتراكيه . ومن ثم أعلنوا شعارهم المحير عن « اشتراكيه الاراضى » . وكان هذا الشعار يجمع بين الفكرة الثوريه لمصادرة الملكيات الكبيرة والفكرة الخياليه الراميه إلى المحافظه على المشاعيه

الملاحيه القديمة التى كانت الاشتراكيون الثوريون يرون أنها تكاد تكون جنينا للمجتمع الإشتراكى المقبل . ولم يكن هناك من الناحية العمليه فارق يذكر بين ، اشتراكيه الاراضى ، التى دعا إليها الاشتراكيون الثوريون وبين تأميم الأراضى ، ولكنهم أضفوا طابعا اشتراكيا زائفا على هذا الإجراء الاصلاحى البورجوازى الصرف ، وبذلك زادوا من البلبلة فى أفكار الفلاحين . ومع ذلك فإن هذا البرنامج إذا وضع فى إطار ثورة ديموقراطيه ، فإنه يتفق مع اتجاه الجماهير العريضه للفلاحين ويكتسب درجه من التأييد للاشتراكيين الثوريين فى الريف .

كان البرنامج السياسى للاشتراكيين الديموقراطيين يدعو إلى جمهوريه ديموقراطيه وحريات سياسيه ، وكان قريبا من مطالب الحزب الاشتراكى الديموقراطى للعمال الروس فى كثير من النواحى .

وكان تكتيك الاشتراكيين الثوريين يعتمد على الإرهاب الفردى . وقد قام مناضلوهم باغتيال وزيرين للداخليه وأحد الدوقات والكثير من كبار الموظفين والقادة العسكريين للقيصريه . ولاشك فى أن الأعمال الإرهابيه قد ساعدت فى خلخلة الجهاز الحكومى لكن تلك الأعمال فى ذاتها ما كانت بقادرة على تغيير النظام السياسى للبلاد . كما كان هناك الوجه الآخر للعملة ، إذ أن الأعمال الارهابيه كانت حافزا للحكومه على للقيام بأعمال إنتقاميه ، وصرفت أنظار القوى الثوريه عن العمل بين جماهير الشعب . وكان للتنظيمات الاشتراكيه الثوريه نشاط غير قليل فى الريف وبين عمال المدن والطلبه والجنود والبحارة . ورغم ما اتسم به الاشتراكيون الثوريون من ميل المغامرة وكثرة تغيير المواقف فقد كانوا فى الأساس فى بدايه القرن العشرين حزبا ثوريا ديموقراطيا ، وناضلوا ضد الاوتوقراطيه ولذا وجد البلاشفة أن من الممكن عقد إتفاقات نضالية مؤقتة معهم ، ولاسيما خلال التحركات المسلحة ضد النظام القائم . ومن أمثلة ذلك

الانتفاضة المسلحه فى ديسمبر ١٩٠٥ . غير أن البلاشفه كانوا يخوضون فى الوقت ذاته مجادلات حادة مع الاشتراكيين الثوريين حول نظريه الكفاح الثورى وممارساته .

وكانت الشخصيتان البارزتان بين قادة الاشتراكيين الثوريين : فيكتور شيرنوف وهو مفكرهم النظرى الرئيسى ومحرر جريدة الحزب ، وبوريس شافينكوف رئيس المنظمه المقاتله . وفى عام ١٩٠٦ كانت روسيا كلها تتحدث عن ماريا سبيريدونوفا التى تبلغ من العمر ٢٢ عاما . فبعد محاولة لاغتيال أحد كبار الموظفين القيصريين الذى قام بوحشيه بقمع حركه للفلاحين فى محافظة تامبوف ، تعرضت هذه الفتاة للاغتصاب على يد ضباط مخمورين وأرسلت إلى معسكر للأشغال الشاقه فى سيبيريا حيث بقيت حتى فبراير ١٩١٧ . وقد أصبحت فيما بعد من قادة الجناح اليسارى للاشتراكيين الثوريين . ومن الشخصيات الكريهه بينهم ا . آزيف الذى كان عضوا فى اللجنه المركزيه للحزب الاشتراكى الثورى وكان مخبرا للبوليس فى الوقت ذاته . وأدى كشف أعمال آزيف الاستفزازيه فى عام ١٩٠٨ إلى انخفاض حاد فى مكانة الاشتراكيين الثوريين فى أعين الجماهير ، ولاسيما فى أعين المثقفون ذوى الفكر الديموقراطى .

وخلال ثورة ١٩٠٥ — ١٩٠٧ حاول نواب الفلاحين فى مجلس الدوما إنشاء مجموعه « ترودوفيك » المستقلة التى كانت محاولة غير موفقه لإنشاء حزب سياسى مستقل للفلاحين وقد برز دور الترودوفيك على الأخص فى عام ١٩٠٦ عندما قاموا ، بعد إقدام القيصر على حل مجلس الدوما الأول ، بدعوة جماهير الفلاحين إلى حمل السلاح . غير أن الترودوفيك اتخذوا بعد ذلك موقفا أكثر اعتدالا وحدو من نشاطهم السياسى إلى حد كبير .

وإلى جانب الاشتراكيين الثوريين والترودوفيك ، كان هنـــاك أيضا

الاشتراكيون الشعبيون الذين اهتموا بالعمل السياسى بين الفلاحين وانفصلوا عن الاشتراكيين الثوريين فى عام ١٩٠٦ . وكانت هناك أوجه نشاط مماثله تقوم بها منظمات مختلفه فى المناطق التى تقطنها القوميات غير الروسيه . بيد أنه لم يكن لها تأييد على مستوى القاعدة فى الريف ولم يكن فى الوسع مقارنة تأثيرها على الفلاحين بتأثير الطلائع على بروليتاريا المدن ذات الوعى السياسى .

وهكذا كانت روسيا فى السنوات الأولى للقرن العشرين أشبه بإناء هائل يغلى ، وإذا قارناه بما كان عليه فى أيام الماركيز دى كوستين لقلنا إنه كان منذ أمد طويل على شفا الانفجار . وقد حدث الاندلاع الأول للهيب فى عام ١٩٠٥ ، وجاءت الحرب العالميه الأولى فقربت اندلاع اللهيب للمرة الثانيه وذلك ماحدث فى أول أغسطس ١٩١٤

° ° °

ثالثا : الحرب العالمية الأولى

الخراب الاقتصادى :

كانت الحرب العالمية الأولى من أكبر الكوارث فى تاريخ البشرية . إذ أن عدد الدول المشتركة فيها بلغ ٣٠ دولة ، يتجاوز مجموع سكانها أكثر ١٥٠٠ مليون نسمة ، أى نحو تسعة أعشار سكان العالم جميعا . وقد جند فى جيوش الدول المتحاربة أكثر من ٧٠ مليون جندى ، قتل منهم عشرة ملايين وجرح وأصيب أكثر من ٢٠ مليونا . وكان ذلك هو الثمن الفادح الذى اضطرت الشعوب إلى دفعه ثمنا للمغامرة الداميه التى خاضتها حكوماتها التى أشعلت حربا من أجل إعادة تقسيم العالم .

وقد بدأ الإعداد للحرب قبل اندلاعها بزمن طويل . وتشكلت فى أوربا كتلتان عسكريتان سياسيتان هما : الحلف الثلاثى ودول الوفاق . وأخذت الميزانيات العسكرية فى التضخم عاما بعد آخر ، وأخذت الدول فى تكديس الأسلحة والذخائر . وازداد اعتماد روسيا على بريطانيا وفرنسا سواء من الناحية المالية أو الاقتصادية . ومن الجانب الآخر زادت التناقضات بين روسيا وألمانيا حدة وتوترا . وذلك بالإضافة إلى أن القيصرية لم تكن من القوة بحيث تستطيع أن تنفذ مشروعاتها التوسعية معتمدة على نفسها .

وأدى ذلك بصورة منطقية إلى انضمام الاوتوقراطية القيصرية إلى معسكر دول الوفاق . ولكن روسيا من بين جميع الدول الكبرى ، كانت أقلها استعداداً لمحنة الحرب الشاقة سواء عسكرياً أو إقتصادياً .

وكان ذلك فى المدى الطويل هو السبب فى الهزائم التى منى بها الجيش القيصرى ففى خريف ١٩١٥ اضطرت القوات القيصرية إلى إخلاء غاليسيا وبولندة وجزءاً من بللو روسيا وبعض المحافظات على شاطىء بحر البلطيق . ودفعت ألمانيا والنمسا والمجر ثمن هذا النصر مليونين من أرواح جنودهما ، لكن الجيش الروسى كان فى وضع أشد قسوة ، إذ فقد نحو ٣,٥ مليون جندى بين قتيل وجريح وأسير ، وكاد يصاب بالشلل . وترجع هذه الهزائم أيضاً إلى الأخطاء التى ارتكبها القادة العسكريون القيصريون وغيرهم من كبار الموظفين ، وعدم توافر مساعدات فعالة من جانب الحلفاء .

ومنذ أواخر عام ١٩١٤ ظهر أن الجيش الروسى يفتقر إلى المدافع والبنادق فضلا عن الذخيرة ، فكانت التعزيزات ترسل إلى الجبهة دون تسليح يذكر .

وفى الوقت ذاته كانت أزمة إقتصادية شاملة آخذة فى الانتشار فى أنحاء البلاد وهددت بشل إقتصاد البلد بأسره .

وحاولت روسيا أن تطبق ما فعلته بعض الدول المحاربة الأخرى من تنظيم سير الاقتصاد والنقل على أسس رأسمالية الدولة . فشكلت سلسلة من اللجان الخاصة لشؤون الدفاع تضم ممثلين للحكومة والبورجوازية ، كما شكلت لجان عديدة للصناعات الحربية . غير أن هذه الإجراءات لم تتمكن من وقف اشتداد الأزمه الحتمى . وترتب على دعوة المجندين أن فقدت الزراعه ما يقرب من نصف العاملين فيها من الرجال الأشداء ، كما أصبح العمال الجدد يمثلون نحو ثلث القوى العاملة فى الصناعه .

وفى ربيع عام ١٩١٦ كان أكثر من ١٦٠٠ مصنع قد توقفت عن العمل ، إلى جانب ١٥٠٠ مصنع أخرى أنقصت حجم إنتاجها . وكان للحرب أثر مدمر

على الاقتصاد الوطنى لا لمجرد أن المنشآت الصناعية قد دمرت ماديا بل ولأن الصناعة والزراعة قد تحولتا إلى مجال غير منتج على الإطلاق ، ألا وهو خدمة الجيش والأسطول . وتذهب بعض التقديرات إلى أن الحرب كانت تستهلك نسبة تصل إلى ٥٠ ٪ من الدخل القومى فى عام ١٩١٧ .

وفى عدد من الصناعات التى كانت تعمل من أجل الجيش المقاتل فى الميدان ، زاد الإنتاج بنسبة بلغت ٢٠٠ أو ٣٠٠ ٪ أثناء الحرب . ولكن الإنتاج فى ١٩١٦ لم يزد من حيث القيمة فى الصناعة فى مجموعها عما كان عليه فى ١٩١٣ إلا بنسبة ٢١,٥ ٪ ، وفى ١٩١٧ انخفض الإنتاج بما يقرب من ٢٥ ٪ . وحدث انخفاض شديد فى إنتاج البترول والصلب والحديد والمنسوجات .

وخيم شبح الإفلاس على البلاد . وخلال ٣٠ شهراً من الحرب بلغت الاعتمادات العسكرية نحو ٣٠٠٠٠ مليون روبل ، وهو مبلغ يصل إلى ثلاثة أضعاف ما كانت الحكومة تنفقه عادة فى مثل هذه الفترة . ولتغطية العجز ، لجأت الحكومه إلى زيادة الضرائب ، وأصدرت أذونا حكوميه بقروض داخليه بلغت قيمتها ٧٥٠٠ مليون روبل . وبلغت الديون الخارجيه ٦٦٠٠ مليون روبل وأغرقت البلاد بالنقود الورقيه .

وفى ربيع ١٩١٧ تجاوز الدين الوطنى ٤٠٠٠٠ مليون روبل ، وبلغت فوائد الدين وحدها حوالى ٢٠٠٠ مليون روبل سنوياً . وفى ١٩١٧ كان حجم الدين الوطنى فى روسيا يتجاوز حجمه فى أى بلد من البلدان المحاربه الرئيسيه الأخرى فيما عدا بريطانيا .

وكذلك اضطرب النقل وسادته الفوضى ، وأخذ عدد القاطرات والمركبات المستهلكة فى الزيادة باضطراد . وزاد حجم البضائع التى عجزت السكك الحديديه

عن نقلها عن حولة عشرات الآلاف من العربات . وفى فبراير ١٩١٧: كانت السكك الحديدية تنقل أقل من نصف الحصص الغذائية اللازمة للجيش فى الميدان .

وفى بداية مارس ١٩١٧ مرت أوقات لم تكن فيها إمدادات الخبز فى موسكو وبتروجراد تكفى أكثر من أيام معدودات . وفى كثير من قطاعات الجبهه التى تضم مئات الألوف من الجنود الذين يلزم إطعامهم ، لم تكن تلك الإمدادات تكفى لأكثر من نصف يوم .

وفى الريف المخرب ، الذى فقد حوالى ٥ ملايين جواد ، إنخفض إنتاج الحبوب عما كان عليه قبل الحرب بما يقرب من الربع كما انخفض إنتاج الزبد اللحم . ورغم أن الريف ، ولا سيما المناطق الشرقيه ، كان به الحد الأدنى اللازم من الأغذيه ، فإن فوضى المواصلات وعمليات النهب ، والسوق السوداء التى مارستها البورجوازيه وملاك الأراضى جعلت البلاد على شفا المجاعه ، وبحلول عام ١٩١٧ كان ثمن الخبز قد وصل إلى الضعف تقريبا ، وثمن اللحم قد زاد ثلاثة أمثال ، وثمن القطن قد ارتفع لما يقرب من خمسة أمثال ، وثمن الأحذيه قد ارتفع تسعه أمثال . وأخذت الاضطرابات الناشئه عن نقص الأغذيه والهجوم على محلات الأغذيه فى التزايد من شهر لآخر ، وأصبح الوضع فى البلاد ينذر بكارثه .

النظام القيصرى يعانى حشرجة الموت :

إن الحرب بكافة صورها تفرض على الدول المشتركة فيها وعلى الحكومات التى أشعلتها مطالب خاصه مكثفه . ويصدق ذلك على الأخص على حرب عالميه شاملة كحرب ١٩١٤ — ١٩١٨ . فلم يلبث النظام الاستبدادى الذى كان منذ

أمد طويل لا يحكم روسيا بقدر ما يقهر شعبه ذاته أن كشف خلال فترة قصيرة من الزمن عن عجزه الكامل على مواجهة المشاكل . وكانت إدارة جيش يضم ١٥ مليون جندى ، وجهاز الحكومة المعقد ، والنظام البيروقراطى الهائل تتطلب قدراً كبيراً من المعرفة والحنكة الإدارية والموهبة التنظيمية . ولكن ذلك كله كان مفتقداً لدى طبقة الملاك المنحلة التى انقضى أوانها والتى كان يرأسها « النبيل الاول » آخر قياصرة روسيا . وكان ذلك بعيداً عن إمكانيات النظام القيصرى الفاسد الخانع ، والذى كانت فلسفته السياسية بكاملها — إذا كان له ما يمكن أن يسمى « بفلسفة » — تتمثل فى المحافظة على الأسس العتيقة للاوتوقراطية والاحتفاظ بالسلطة والثروات والامتيازات بأى ثمن .

وقد وجد المؤرخون والصحفيون بعض المقارنات الواضحة البليغه التى تصور الأزمة السياسية والفكرية والمعنويه التى سادت « القمه » الحاكمه فى المجتمع الروسى فى فترة الحرب . فكتبوا عن « كسوف روسيا الامبراطوريه » وشبهوا نيقولا الثانى بسائق فقد صوابه يندفع بمركبته بسرعه إلى حافه الهاويه .

وكان من أثر الحرب أن أصبحت التناقضات التى تمزق البلاد أشد قسوة وأصعب احتمالا ، ودفعت بالتناقضات الطبقيه إلى نقطه الغليان .

والواقع أنه يصعب تصور تناقضات أشد وضوحا من تلك التى كانت قائمه فى روسيا فى تلك الأيام : الخنادق تمتد آلاف الكيلو مترات وفيها يقبع الجنود جائعين ، لايجدون كفايتهم من الملابس ، وهم فى بعض الأحيان بغير سلاح ، ينتظرون الموت بين الدم والأوحال ، بينما هناك غرف القصور المتألقه التى يضوع فيها العطر ، وتحاك فيها المؤمرات ، وتحفل بالتهتك ، ولايشعر سكانها حتى برائحة الحرب النتنه . ونجد القرى الروسيه الفقيرة الغارقه فى الثلوج والتى كادت تخلو من

سكانها ، وكذلك القاعات الفاخرة لمطاعم العاصمه حيث تتكلف زجاجه الشمبانيا أكثر مما يستطيع العامل العادى أن يكسبه خلال شهر من العمل الشاق القاصم للظهور .

وتجلت أزمه السلطه على جميع المستويات : فالموظفون فى المواقع الإداريه العليا لم يتخذوا القرارات اللازمه فى الوقت المناسب والتى تدعو إليها الحاجه السياسيه ، كما أن الموظفين فى المراتب الدنيا لم يكونوا قادرين على تنفيذ مثل تلك القرارات بدقه وعلى وجه السرعه . وكان الجهاز الحكومى بأسره موبوءا بالرشوة والمحسوبيه والتعطيل البيروقراطى والعجز الإدارى . ولم يكن لدى الحكومه إستراتيجيه مدروسه ولا تكتيك مرن ومعقول ، وكانت الحكومه فى فى حالة تفسخ وانهيار قبل سقوطها الحتمى الوشيك .

وفى أعقاب صيف ١٩١٥ الذى لقى فيه الجيش هزائم فادحه فى الجبهه ، وعندما بدأت المشاعر الثوريه والمعارضه تنمو فى البلاد بدأ ما سمى «قفز الضفادع فى المناصب الوزاريه» — إذ كانت الحكومه تشكل ويعاد تشكيلها ويصحب ذلك تغييرات سريعه وغير متوقعه فى المناصب الإداريه العليا . ولجأت الاوتوقراطيه إلى هذا التكتيك لتكتسب مظهر الاستقرار السياسى على الأقل. وكان نيقولا الثانى مضطراً لإيجاد توازن بين الجناح اليمينى المتطرف وبين المعارضه فى الدوما ، ولذا بدأ فى تغيير وزرائه بسرعه متزايدة . لكن جميع تلك التغيرات تميزت بظاهرة غريبه لم تتغير وهى أن كل وغد خانع كان يستبدل بوغد خانع آخر ، بل وربما أكثر خنوعا . وكان السياسى المحدث يستبدل بسياسى محدث آخر ، وغالبا ما يكون بلا شخصيه ، والرجعى يستبدل برجعى آخر ، وغالبا ما يكون نظيره صحالة وقسوة . .

وإذا كان ا . ل . جوريميكين البالغ من العمر ٠٠ عاما والذى ٠ أخرجوه

نفوح منه رائحه النفتالين ، وعينوه رئيساً للوزراء فى بدايه ١٩١٤ قد نجح فى البقاء فى منصبه لعامين كاملين ، فإن خليفته والذى لايقل عنه رجعيه ب . ف . ستورمر لم يكمل فى المنصب غير عشرة أشهر وأعقبه ا . ف . تريبوف فلم يبق فى المنصب غير شهر ونصف شهر وبقى آخـــر الرؤساء الذين عينهم القيصر ن . د . جوليتسين شهرين إثنين .

وخلال شهور الحرب الثلاثين التى سبقت الإطاحه بالاوتوقراطيه ، تغير سته من وزراء الخارجيه ، وأربعة من وزراء الحرب ، وأربعه من وزراء العدل وثلاثه من وزراء النقل وكثير غيرهم . وقد تم التغيير فى بعض الحالات نتيجه لمواقف مخزيه فوزير الحرب ف . ا . سوخوملينوف مثلا قد فصل من منصبه فى يونيو ١٩١٥ تحت ضغط التيار الليبرالى بعد سلسلة من الهزائم الكبرى فى الجبهة .

وفى مارس ١٩١٦ ألقى القبض عليه بتهمة سوء استخدام السلطة وإقامة علاقات مع الجواسيس الألمان . وأثناء محاكمته التى عقدت فى خريف ١٩١٧ اسقطت عنه تهمة الخيانة ولكنه أدين لعدم قيامه بإعداد الجيش إعدادا كافيا للحرب وحكم عليه بالأشغال الشاقة مدى الحياة . ثم خفف الحكم فيما بعد إلى السجن .

ومن ناحية أخرى فقد أقيل وزير الخارجية س . د سازونوف نتيجة لمناورات الدوائر اليمينية المتطرفة والتى اتهمته « بالتبعية » لبريطانيا والعطف الواضح على الدوما .

أما ب . ف . استورمر فكان مخادعا وبلا مبادىء حريصا على جمع الثروه على حساب الحكومة ، ولم يكن له برنامج سياسى خاص به . وكان ذلك هو

أكثر ما يناسب القيصر والقيصرة . وهما لم يتخليا عنه إلا مضطرين تحت ضغط الضجة السياسية التي حدثت في الدوما عندما إتهم صراحة بالخيانة .

وقام وزير الداخلية ا.ا. خوفوستوف باختلاس أكثر من مليون روبل من أموال الحكومة خلال توليه الوزارة ، كما أن آخر وزراء الداخلية ا . د . بروتوبوبوف ، وهو أصلا يملك مصنع نسيج فاشل ويملك مساحات شاسعة من الأرض ، فلم يتردد في الدخول في مغامرات مالية من كل نوع وفي صفقات مريبة . ولم يكن معروفا عنه الكفاءة الإدارية أو السياسية بل الكفاءة على تسلية نيقولا الثاني وأسرته وإقامة الحفلات الخاصة في القصر الملكي المسمى « تساركوييه تسيلو » بالقرب من سان بطرسبرج . وكان هذا هو طراز الرجال الذين تمتعوا بثقة القيصر وحكموا باسمه دولة كبيرة وشعبا عظيما .

إلا أن قضية راسبوتين كانت أوضح مثال لأزمة الحكم . فالمحسوبيات أمر مألوف ومعروف عن أي نظام إقطاعي إستبدادي ، ولم يكن النظام الروسي استثناء من ذلك . ولكن لم يحدث من قبل أن منحت قوة هائلة لشخص مريب ومجرد من الأخلاق مثل ماحدث مع جريجوري راسبوتين وكان ذلك انعكاسا للتفسخ الكامل وتدهور نظام حكم آل رومانوف ، والذي دفع معاصريه إلى القول بأن النظام قد تعفن حتى جذوره » .

وجريجوري راسبوتين فلاح سيبيري نصف أمي . كان في يوم من الأيام عضوا في جماعة دينية مجهولة ، وكان من لصوص الخيل . وقد التقى بنقولا الثاني لأول مرة في عام ١٩٠٥ الحافل بالأحداث ، ولم يمض زمن طويل حتى عرف بأنه « رجل مبروك » بل و « قديس » . وكان لنظرته الشيطانية أثرها السحري على سيدات البلاط مثل أنا فيروبوفا التي كانت مقربة إلى القيصرية بل وعلى الكسندرا

فيودورفنا نفسها ، وقد تمكن راسبوتين، وهو المغامر الماهر وذو الأطماع البعيدة، من إقناعها بأنه الشخص الوحيد القادر على أن ينقذ ، بصلاته، إبنها الكسى المصاب بمرض عضال وحلول البركة على جميع أعمال القيصر فى حكم البلاد . وفى مقابل ذلك كان كل شىء مغفوراً لراسبوتين : القحة ، والإنحلال المشين ، ومجونه الخمور ، وتجاوزاته البشعة . ولاشك فى أن تأثير راسبوتين لم يكن بلا حدود ، ولا سيما على القيصر ، وكان مضطراً لأن يكون متيقظاً دائماً لأى تغيير يطرأ على مزاج سادته العظام ، وأن يتتبع آراء المحيطين بالعرش . ومع ذلك فلم يعين وزير واحد فى فترة الحرب دون الحصول على بركة راسبوتين . وكان المضاربون فى البورصة ورجال البنوك يطلبون عونه ومساعدته (مقابل أتعاب « مجزية » بطبيعة الحال) . وكانت غرفة استقباله تزخر دائما بكبار الموظفين وسيدات المجتمع الذين ينتظرون المثول بين يديه . وكان رجل الدين لايتدخل فى السياسة الداخلية فحسب بل حاول أيضا أن يقدم المشورة فى مسائل الاستراتيجية العسكرية .

وكان ذلك كله دليلا على الفساد الشديد والانحلال المعنوى « والدروشة » التى انحدرت إليها المجموعة الحاكمة . ومجرد أن فلاحا جلفا نصف أمى كان يمثل الشعب الروسى فى أعين القيصر وزوجته . وأن تقريبه إليهما كان فى رأيهما رمزاً لتحلى النظام الاوتوقراطى « بالروح الوطنية » يشهد على الانحدار والانحطاط المعنوى بساكنى قصر الشتاء بل وللنظام القيصرى كله .

ولذا فإن المحاولات التى بذلها بعض النبلاء لإنقاذ القيصرية بتخليصها من بين يدى راسبوتين الملطختين واللتين لم تلوثا فقط آخر سلالة رومانوف بل لوثتا أيضا فكرة الملكية ذاتها ، لم تعد قادرة على تحقيق النتيجة المطلوبة .

وقد قتل راسبوتين قتلة شنيعة فى ١٧ ديسمبر ١٩١٦ على يد ديمترى رومانوف ابن عم القيصر وواحد من أغنى أغنياء روسيا، والامير ف. يوسوبوف

وهو أيضا من أقارب نيقولا الثانى و ف . بوريشكيفيتش أحد الأعضاء اليمينيين فى مجلس الدوما .

غير أنه لم يكن لهذا العمل « البطولى » من وجهة نظر القتلة ذوى المراكز المرموقة ، من أثر غير زيادة اندفاع الحكومة فى إجراءاتها الرجعية . وبقى شبح راسبوتين يخيم بشكل ملموس على القيصر والقيصرة الذين استمرا فى دفع البلاد نحو الكارثة بعناد وتعصب .

ومازالت الكتابات فى العالم الخارجى تكثر من الحديث عن القيصر والقيصرة ومنذ أمد غير بعيد كانا هما الشخصيتين الرئيسيتين فى فيلم بعنوان « نيقولا والكسندرا » لقى نجاحا كبيرا فى دول الغرب . فالمؤرخون الغربيون يجمعون بعض الذكريات من هنا وهناك ويصورون القيصر على أنه رجل جذاب متواضع ، مهذب ورب أسرة جدير بالاحترام . ويقولون إنه لم يكن موهوبا كرجل دولة بغير شك ولكنه بذل جهده من أجل خير بلاده فى حدود استطاعته . ويرى كثير من الكتاب فى الدول الأخرى أن نيقولا كان ضحية لظروف غير ملائمة ، منها ضعف إرادته وتآمر « قوى الظلام » وأنه لم يكن بأى حال مصدراً للشر الاجتماعى .

وأخيراً وليس آخرا فإن إطلاق الرصاص على أسرته فى عام ١٩١٨ أضفى على شخصية آخر قياصرة روسيا مسحة الاستشهاد فى عين كثير من القراء الغربيين وجعلت منه شخصية تراجيدية ، وأحال السنوات الأخيرة لحكمه إلى مزيج من الروايات البوليسية والميلودراما .

ولابد أن يوافق المرء بطبيعة الحال على الرأى القائل بأن نيقولا الثانى ، وهو شخص محدود المواهب تماما ، لم يكن شخصية مناسبة للظروف ، أو بعبارة أدق

لـير التاريخ . وكان من عادته أن يقول صراحة لوزير خارجيته سازونوف :
« انى آنا سيرجى ديميتر يفيتش أحرص على ألا أفكر طويلا فى أى موضوع ، وأرى أن هذا هو السبيل الوحيد لحكم روسيا . ولولا ذلك لكنت قد أصبحت فى عداد الأموات منذ أمد طويل » . كما يمكن المرء أن يوافق ، بشىء من التحفظ ، على أنه كان هناك حول القيصر بعض « أساطين الشر » ولاسيما راسبوتين ، وزوجته القيصرة . لكن النقطة الهامة أن نيقولا الثانى نفسه لم يكن ذلك الرجل المسالم الذى يود بعض المعجبين به والمدافعين عنه أن يصوروه . فقد كان شديد التعصب لفكرة الاوتوقراطية ، ويؤمن إيمانا أعمى بحب رعاياه له . وكان معروفا بأنانيته وعدم اكتراثه للآخرين ، وأفقه محدود ولا تتجاوز نظرته نظرة عقيد فى الحرس الامبراطورى . وكان دؤوبا وذا ذاكرة قوية ، لكنه فى أمور الحكم لا يعدو أن يكون « سياسيا ضئيل القامة » لم تكن له قدرة على الرؤية ، والتطلع ، ولا القدرة على استخلاص الدروس أو توقع الأحداث . فبعد الهزائم التى منى بها الجيش الروسى فى حملتى الربيع والصيف فى عام ١٩١٥ ، تولى نيقولا مهمة القائد الأعلى للجيش . وكشف فى هذا المنصب عن افتقاره الكامل للكفاءة العسكرية .

وبذا كان يحكم روسيا رجل محدود المواهب وعنيد ، يضحى فى كل خطوة بمصالح البلاد وشعبها على مذبح شهواته واعتقاداته وأوهامه . لقد كان رجل مثقل الضمير — وتلك حقيقة تاريخية لاشك فيها — بدماء مئات الآلوف الذين قتلوا خلال المذابح التى تعرض لها الثوريون وفى ساحات المعارك فى حربين لا مصلحة فيها للشعب أو الوطن واللتين أعلنتا دون شعور بالمسؤولية وانتهتا بهزيمة فادحة .

وزوجة نيقولا ، التى كانت قبل الزواج - الأميرة الألمانية اليكس هيدارمستاد - سريعة الانفعال بل وهستيرية . وكانت تتمنى أن ترى عزيزها « نيكى » صورة

جديدة من إيفان الرهيب ، قادراً على سحق أى معارض لرأيه . ولاشك فى أن شخصيتها العنيدة والمشاكسة ، وكراهيتها لـكل ما هو روسى ، وخضوعها المطلق لنفوذ راسبوتين كان لها دور غير قليل فى تدمير سمعة النظام الاوتوقراطى سواء معنويا أو سياسيا والتعجيل بعزلته . وذلك إلى أن نيقولا والكسندرا ذاتهما كانا نتاجا لنظام إجتماعى وسياسى لم تعد له جدوى أو فائدة .

وينبغى آخر الأمر أن نقول أن الأخطاء العديدة التى وقع فيها نيقولا الثانى لم تكن هى التى حددت مصير الملكية ، وإنما حدد مصيرها الضعف الشديد للأساس الاقتصادى والاجتماعى لنظام أسرة رومانوف وفقدها لكل احترام فى عين الطبقات الحاكمة ، فضلا عن جماهير الشعب . فهذه العوامل جميعا مهدت الطريق للانهيار السريع ، بل الصاعق للقيصرية فى فبراير ١٩١٧ ، عندما أنهى الشعب الثائر النظام الاستبدادى الذى استمر ٣٠٠ عام خلال أسبوع واحد .

الشعب يناضل والبورجوازية تتسلل الى السلطة :

كانت ثورة ١٩٠٥ — ١٩٠٧ فى روسيا أولى المعارك الثورية العديدة فى القرن العشرين العاصف ، عندما كانت البلاد مشتعلة بالثورة . ففى تلك الفترة أضرب مابين ٥ ، ٧ ملايين عامل فى المدن ، وحدثت على الأقل ١٨٠٠٠ حركة تمرد بين الفلاحين فى الريف ، وحدثت مئات الاضطرابات وحوادث التمرد فى الجيش والأسطول ، كما كان هناك العديد من الإضرابات والمظاهرات الطلابية ومظاهر الاحتجاج من جانب الأقليات القومية التى تضطهدها القيصرية .

هذه بعض الحقائق البارزه التى تميز تلك الفتره التى كانت حاسمة بالنسبة لروسيا بل وبالنسبة للعالم أجمع . ورغم أن الثوره الأولى انتهت بهزيمه الجماهير

العاملة فإن الاوتوقراطيه لم تسترد قوتها بالكامل فى أى وقت بعد الضربه التى تلقتها فى ١٩٠٥ — ١٩٠٧ .

وبعد سنوات قليلة هبت البروليتاريا الروسية مرة أخرى لتقاتل من أجل الحرية والاستقلال . فقبيل إعلان الحرب ظهرت المتاريس فى شوارع سان بطرسبرج كما ظهرت فى عام ١٩٠٥ . وفى ١٩١٤ أضرب مرة أخرى أكثر من مليونين من العمال فى روسيا إحتجاجاً على استبداد الاوتوقراطية والبورجوازية وضد العسكرية وخطر الحرب العالمية .

وفى الشهور الاولى بعد بداية الحرب نجحت الحكومة القيصرية فى إخماد النيران الثورية . ففى ظل ظروف الحرب زادت بشكل حاد الإجراءات الإنتقاميه ضد أبسط مظهر من مظاهر السخط على النظام القائم . واستدعى الكثير من العمال والفلاحين ذوى الفكر الثورى للخدمة العسكرية وأرسلوا إلى الجبهة ، وسقط جانب من الأهالى فريسة للدعاية السوفيتية من جانب السلطات القيصرية والصحافة الرأسمالية .

وحتى فى الأيام الاولى للحرب ، فإن عمال روسيا التقدميين والحزب البلشفى أفهموا القيصرية أن الكفاح الثورى سوف يستمر حتى والبلاد فى حالة حرب ، فلا هدنة مع الاوتوقراطية والبورجوازية ، « إننا نعلن الحرب على الحرب » ، كان ذلك هو رد البروليتاريا الروسية وحزبها الذى أسسه لينين على دعوة الطبقات الحاكمة إلى « الوحدة الوطنية » لدحر العدو الخارجى . وكانت الطبقة العاملة الروسية هى الطبقة الوحيدة فى المجتمع الروسى التى صمدت بوجه عام وقاومت التيار الجارف للقومية والسوفيتيه وتمسكت بإخلاصها لمبادىء الأمميه البروليتاريه .

وبينما انحدرت أحزاب الدوليه الثانيه ، بما فى ذلك أغلبيه المناشفه والاشتراكيين والثوريين الروس ، إلى الشوفينيه الاجتماعيه الصريحه أو المستترة ، قام البلاشفه بشن حملة واسعه النطاق ضد الحرب . وكان لينين فى ذلك الحين فى خارج البلاد ، فى بولندا أولا ، ثم فى سويسرا منذ سبتمبر ١٩١٤ . وقد وضع برنامج عمل واضح للاشتراكيين الديموقراطيين الثوريين فى ظروف الحرب ، كانت أهم نقاطه : لا تأييد للحكومات الإمبرياليه ، وضرورة النضال ضد الشوفينيه ، والاستمرار فى الإعداد للثورتين الديموقراطيه والاشتراكيه وإقامة دوليه جديدة هى الدوليه الثالثه ، بريئه من الانتهازيه .

وكان لينين يبغض الحرب بغضا شديدا لما تجلبه على ملايين الكادحين من أحزان ومآسى ولكنه لم يكن مجرد داعية سلام يحلم بانتهاء نزيف الدم وعودة العالم إلى حالته السابقه التى تنذر بالمزيد من المنازعات الامبرياليه .

ولما كان العمال قد أخفقوا بسبب ضعفهم وانقسامهم فى منع الحرب ، فقد رأى لينين أنهم يجب أن يبذلوا كل ما فى وسعهم لاستخدام الازمه التى جلبتها الحرب لتقريب الثورة البروليتاريه وإقامه نظام إجتماعى جديد خال من الحروب واستخدام العنف من جانب دولة ضد أخرى .

ومن ثم فقد ذكر لينين بصراحه إنه ينبغى على الاشتراكيين فى جميع الدول المتحاربه بلا استثناء أن يعملوا لهزيمه حكوماتهم فى تلك الحرب المعاديه للشعب والقائمه على النهب ، وتحويل حمام الدم الإمبريالى إلى ثورة بروليتاريه عالميه ترفع على أعلامها شعار : « السلام للاكواخ والحرب على القصور ! » .

وقد قدم لينين بيانه هذا فى وقت اكتسحت فيه الهستيريا « الوطنيه » أوربا بأسرها ، وأبدى الاشتراكيون من أعضاء البرلمان فى الدول المتحاربه استعدادهم

الموافقه على الاعتمادات العسكريه . ولذا لم يكن غريبا أن تتهم الصحافه الحكوميه والرأسماليه لينين بالدعوه إلى العدميه الوطنيه وانعدام المشاعر القوميه بل وبالخيانه العظمى لروسيا ، بل وألحت إلى أنه من السهل أن يكون الإنسان « انهزاميا » بينما يتمتع بالأمن الشخصى الكامل فى سويسرا المسالمه والمحايدة .

غير أن لينين واجه أوقاتا صعبه فى الفترة الأخيرة من إقامته كمهاجر فى سويسرا . ولا يستطيع المرء أن يقرأ دون تأثر الذكريات التى كتبتها ناديجدا كروبسكايا زوجته وصديقته المخلصه . فقد كان وضع لينين يبدو لها فى بعض الأحيان فى تلك السنوات الشاقه للحرب محزنا جدا . إذ لم يكن هناك منفذا لطاقته الهائلة . فإخلاصه غير المحدود للثورة وللطبقه العامله ، ورؤيته الواضحه لمجريات الامور لم تكن لهما جدوى وهو يعيش كمهاجر .

وجميع أعمال لينين فى الفترة بين ١٩١٤ و ١٩١٧ كانت إنجازاً ذهنياً عظيما لصالح القضيه الكبرى التى كرس لها حياته . وقد ذكر أحد أعدائه السياسيين ، فيودور دان ، وهو من المناشفه ، انه لم يعرف فى حياته رجلا غير لينين يمكن أن ينشغل بالاعمال الثوريه ٢٤ ساعه فى اليوم . ورغم أن الكلمه كانت مقصودة كدعابه ساخرة إلا أنها كانت تحوى كثيرا من الحقيقه .

وقد تبدو حياة لينين أثناء الحرب من الناحيه الظاهريه حياة رتيبه ومله . وكانت تبدو خاليه من أى عنصر رومانسى أو بطولى . كان يقضى ساعات طويله فى المكتبه ، ويكتب كثيرا ويشتغل بتحرير الصحف ويلقى الكلمات من حين لآخر فى اجتماعات الحزب ، ويتبادل الرسائل مع رفاقه . وكان ذلك كل شىء يوما بعد يوم ، من سبتمبر ١٩١٤ حتى مارس ١٩١٧ ، عندما تمكن آخر الامر من العودة إلى روسيا . ولكن الشىء الكامن وراء تلك الاعمال الروتينيه فى الظاهر ، كان عمـــلا ضخما وهو إدراك جوهر العصر التاريخى الجديد

والاحتمالات التي انفتحت أمام تاريخ العالم ، والعمل لضم صفوف الحزب وقيادة الحركة الثورية في روسيا ، وجمع كل من بقي نشيطا ومخلصا في الحركة الاشتراكية الدولية بعد انهيار الدولية الثانية .

ووجدت شعارات لينين وأفكاره وخططه سبيلها إلى روسيا ، وأصبحت برنامج عمل المنظمات البلشفية التي أفلتت من الهجمات القيصرية . ومن الأمور ذات الدلالة أنه حينما أصبح الاشتراكيون الأوربيون وزراء في تلك الأيام وتعاونوا مع البورجوازية قامت السلطات القيصرية بإرسال الأعضاء البلاشفة في مجلس الدوما الرابع إلى معسكرات الأشغال الشاقة في سيبيريا بسبب نشاطهم المعادي للحرب . وأطبقت جدران السجون على المئات من رفاقهم . وكان البلاشفة هم الحزب السياسي الوحيد في روسيا الذي اعترض على الحرب الإمبريالية وقام بعمل إيديولوجي وتنظيمي واسع النطاق للأعداد لثورة جديدة .

وكانت التنظيمات البلشفية تحت قيادة اللجنة المركزية لحزب العمال الاشتراكي الديموقراطي الروسي ومكتبه في بتروجراد والذي أعيد إنشاؤه في خريف عام ١٩١٥ . ورغم أن اللجنة المركزية اتخذت مقرها الرئيسي في سويسرا ، فقد بقيت على اتصال مستمر بروسيا . وكانت جريدة سوتسيال ديموقراط ، التي يشرف لينين على تحريرها تصدر في سويسرا وتنقل سرا إلى روسيا . وفي روسيا ذاتها كانت تصدر أكثر من عشرين جريدة ومجلة بلشفية ، ويصدر أغلبها في الخفاء . وقامت المنظمات البلشفية في روسيا ، إلى جانب ذلك ، بإصدار أكثر من ٦٠٠ منشور سري خلال الحرب ، وبلغ العدد الإجمالي للنسخ الصادرة منها حوالي مليوني نسخة . وقد وزعت في نحو ٢٠٠ مدينة وغيرها من المراكز الآهلة بالسكان . وكانت تبلغ الشعب الأنباء الحقيقية عن الحرب ، وقاد البلاشفة كافة أشكال حركة الطبقة العاملة كما نشطوا في الريف وفي الجيش والأسطول .

وفاة الاحتجاج الشعبى
وأصبحوا الطليعة الأممية الحقة للطبقة العامله الروسية ، وفاة الاحتجاج الشعبي
على حرب السلب والنهب .

ونظراً للارتفاع الشديد فى تكاليف الحياة انخفضت الأجور الحقيقيه بنسبة ١٥ — ٢٠٪ فى آخر عام ١٩١٦ عما كانت عليه فى عام ١٩١٣ . وكثير من الاحتياجات الضرورية لم يكن يباع إلا بأسعار فاحشة بينما كان الأهالى مضطرين إلى الوقوف فى طوابير طويله للحصول على السلع الأخرى . وأدى سوء التغذية والمساكن الباردة الرطبة إلى انتشار الأمراض والانهاك بين الجماهير الكادحة . ووقع العبء الأكبر على النساء والأطفال . ووصل يوم العمل المتوسط فى الصناعة ، بما فى ذلك ساعات العمل الإضافية ، إلى ١٦ ساعه . وكان من أثر ذلك وفقا لما جاء فى تقارير عملاء البوليس أن أصبح معظم العمال بحلول خريف ١٩١٦ ، على استعداد للقيام باضطرابات خطيرة من أجل الغذاء ، حتى فى بطرسبرج التى كانت الأجور فيها تزيد عن المتوسط السائد فى البلاد زيادة طفيفه .

وكانت الفوضى الاقتصاديه ، والانحلال المعنوى « للقمه » الحاكمه والهزائم على الجبهه ، والخطط الموضوعه لإضفاء الطابع العسكرى على الصناعه — كانت كلها من مصادر السخط والاضطراب السياسى بين جماهير الشعب الكادح . وأدى العمل الثورى للبلاشفه وأعضاء الكثير من المنظمات الثورية الأخرى ، ولاسيما الاشتراكيين الثوريين اليساريين إلى تكثيف مشاعر الاحتجاج التلقائى ومضاعفتها وتحويلها إلى نضال منظم واع ضد الحرب والنظام الأوتوقراطى .

واشترك نحو ٢٥٠٠٠٠ عامل فى التحركات فى المناطق الصناعيه فى الفترة بين فبراير ويوليو ١٩١٥ . وخلال الشهور السته التاليه تجاوز عدد المضربين ٤٣٠٠٠٠ ، وقدم قرابة نصفهم مطالب سياسيه مختلفه . وفى عام ١٩١٦ شارك

فى الإضرابات أكثر من مليون عامل من بينهم نحو ٣٠٠٠٠٠ أضربوا عن العمل لأسباب سياسية .

والملاحظ أنه فى ظل ظروف الحرب يصبح الحد الفاصل بين الإضرابات الاقتصاديه والسياسيه غير واضح ، لأن أى إضراب اقتصادى ، ولاسيما فى الصناعات الحربيه ، يكتسب أهميه سياسيه كبيرة . وكثير من الاضرابات التى بدأت لأسباب اقتصاديه تحولت بالتدريج إلى تحركات سياسيه .

وانتشرت إضرابات التضامن فى كثير من المصانع بل وفى كثير من المدن . وكان الفلاحون فى الوقت ذاته يزدادون فقرا . وفى عام ١٩١٧ كان ٣٦ ٪ من مزارع الفلاحين فى روسيا الأوربيه لا تملك الواحدة منها جوادا خاصا بها ، وتوقف ١٨ ٪ منها عن الزراعه تماما ، كما أن ١٢ ٪ من الفلاحين لم يكونوا يملكون أرضا . وفى ظل هذه الظروف زاد أيضا عدد تحركات الفلاحين بصورة مضطردة . وسجل نحو ٣٠٠ تحرك خلال عام ١٩١٦ ، كانت فى معظم الاحيان اضطرابات ناشئه عن ارتفاع الأسعار ، فقد دمرت خلالها بعض محلات بيع السلع فى الريف . ثم وقعت بعد ذلك المصادمات بين الفلاحين والملاك والبوليس (نتيجه رفض دفع إيجار الأرض ، والاحتجاج على الاستيلاء العسكرى على المحاصيل وما إلى ذلك) . وجاء فى تقارير البوليس « إنه من الملاحظ فى جميع القرى أن ثمه اضطرابات ثوريه شبيهة بما حدث فى ١٩٠٥ — ١٩٠٧ . فالجميع يناقشون المسائل السياسيه ويتخذون القرارات الموجهه ضـــد الملاك والتجار ، وهناك خلايا تشكلها مختلف التنظيمات . . . ولذا فإن الفلاحين سيكونون بغير شك قسما فعالا جدا فى حركة جديدة حتميه » .

ولم يعد الجيش والاسطول يمكن الاعتماد عليهما من وجهة نظر السلطات القيصريه . وتجلى ذلك فى عمليات الهروب الجماعيه من الجيش ، والانخفاض

الحاد فى الانضباط العسكرى ، والتآخى مع الجنود الألمان والنمساويين ، وكذلك فى الأعمال الثورية الصريحة ضد القيصرية . وعلى سبيل المثال فقد حدث تحركا لرجال البحرية فى أسطول البلطيق فى ١٩١٥ و ١٩١٦ ، وفى أكتوبر ١٩١٦ رفض جنود إحدى السرايا العسكرية فى بتروجراد أن يطلقوا النار على مظاهرة للعمال . وقامت التنظيمات العسكرية البلشفية بعمل سياسى كبير فى القوات المسلحة ، ولا سيما فى الجبهة الشمالية وفى أسطول البلطيق . وفى أواخر ١٩١٦ وأوائل ١٩١٧ بدأ الجنود فى رفض القيام بالهجوم أكثر فأكثر . وهناك سرايا بأكملها رفضت الانصياع لأوامر قادتها . وكما قال الضباط القيصريون أنفسهم فإن الجيش لم يعد جيشا بل تحول إلى قوة ثورية للشعب .

وأخيرا وليس أخيرا فإن الشعوب غير الروسية ، التى اضطهدها القيصر ، بدأت فى الانضمام إلى الحركة المعادية للحرب فى ١٩١٦ . فقد هب فقراء المدن والريف فى كازاخستان وآسيا الوسطى فى أوائل يوليو من ذلك العام يحتجون على جمع المواطنين للخدمة العسكرية ، واستمرت حركتهم حتى ربيع ١٩١٧ . وكان يقود هذه الحركة ا . إيمانوف وهو ابن أحد الرعاة الفقراء ، و ا . يانفى الدين أحد أعضاء الحزب البلشفى . وضمت الحركة جيشا ثائرا يبلغ تعداده ٥٠٠٠٠ رجل شن حرب عصابات جريئة ضد القوات القيصرية .

وبذلك نشأ فى البلاد وضع ثورى منذ خريف ١٩١٥ ، وأصبحت روسيا على أبواب ثورة جديدة منذ أواخر ١٩١٦ . فقد ظهرت فيها جميع علامات الأزمة الثورية التى أوضحها لينين : كانت هناك أزمة فى سياسة الطبقة الحاكمة ، وزادت معاناة الطبقات المقهورة وحاجتها أكثر مما كانت فى أى وقت مضى ، ونتجت عن ذلك زيادة كبيرة فى نشاط الجماهير ولا سيما بين العمال .

وفى تلك الظروف زادت أيضا المقاومة التى تبديها البورجوازية الليبرالية

ساخطين للهزائم العسكرية الفادحة التى منيت بها القيصرية ، وعجزها عن مواجهة الحركة الثورية فى داخل البـــلاد ، ورفضها المتعمد لإقتسام السلطة مع رجال الأعمال .

ولم تكن الحرب هى التى أدت إلى الثورة بل كانت جذورها ترجع إلى التناقضات الداخلية العميقة للواقع الروسى . ولكن لاشك فى أن الحرب قربت أجلها ، إذ كشفت عن الفساد الكامل للنظام القيصرى وقادت جماهير الشعب إلى اليأس ، ودفعت إلى حافة الكارثة . كما أن الحرب مكنت الرأسماليين الروس من جمع ثروات فاحشة . وقد حققوا فى بعض الحالات أرباحا تراوحت بين ٣٠٠ ٪ و ١٠٠٠ ٪ من العقود العسكرية وقد عبر الفريق مانيكوفسكى المسؤول عن تموين الجيش بالذخيرة عن رأيه وهو يبلغ القيصر بتلك الظواهر فقال مرة ساخطا « ياصاحب الجلالة ، إن هذه سرقة صريحة » فما كان من نيقولا الثانى إلا أن قدم له نصيحة أقرب إلى الآراء الفلسفية ودعاه إلى عدم إزعاج الجماهير . ولكن إذا كان النظام الأوتوقراطى يمد البورجوازية بإعانات سخية وعقود مجزية ، فلم يكن يفكر إطلاقا فى منحها أى قدر من السلطة السياسية .

وحرصت الحكومة على أن تنحصر أعمال لجان الصناعات الحربية التى تشكلت عام ١٩١٥ فى مجرد « المساعدة » فى تزويد الجيش والأسطول بالأسلحة والمعدات ، بينما اقتصر عمل مجموعة الزمستفو والعصبة المدنية ، واللتين كانتا تضمان عناصر ليبراليه ، على إغاثة المصابين واللاجئين ، كما اهتمتا بدرجه ما بتموين الجيش . أما إقتسام السلطه مع البورجوازية فكان أمرا غير وارد فى روسيا الأوتوقراطيه ، واقتصر دور مجلس الدوما على المجادلات التى لاتنتهى ، وإن كانت حادة فى بعض الأحيان ، حول مختلف جوانب النقص سواء فى الجبهه أو فى المؤخرة .

وعندما اشتعلت نيران الحرب لجـأ المكاديت للبورجوازية الليبيرالية الروسيه ، إلى الكف عن المعارضه . وقالوا صراحة أنه لابد من طرح الخلافات الداخليه جانبا أثناء الحرب ، والقيام بالواجب المقدس بالنسبه للشعب الروسى قاطبه ألا وهو الإبقاء على روسيا الموحدة المترابطه دوله عالميه كبرى . ولكن فى ربيع ١٩١٥ كان « الحماس الوطنى » فى صفوف البورجوازيه قد أخلى مكانه « للقلق على الوطن » لتتبع ذلك بعد أمد قصير المطالبه بإنشاء « حكومه الثقه » التى تضم قادة الأحزاب البورجوازيه .

وفى أغسطس ١٩١٥ ، عندما بدأت تلمس بصورة متزايدة أعراض الازمه الثورية شكلت معظم الأجنحه المؤلفه من البورجوازية وأصحاب الاراضى فى مجلس الدوما (فيما عدا أقصى اليسار) وبعض أعضاء مجلس الدولة ماسمى « الكتله التقدمية » وطالبوا بحد أدنى من الإصلاحات السياسية حتى يمكن السير بالحرب إلى النصر ومنع قيام ثورة جديدة . غير أن الحكومه القيصريه أوقفت عقد جلسات الدوما فى سبتمبر ١٩١٥ ، وأفهمت أعضاءه بوضوح أنه لامجال للحديث عن الإصلاح ، فضلا عن تشكيل حكومة برجوازيه أو حتى حكومه أكثر ليبراليه . وكان رد أعضاء مجلس الدوما على ذلك أن أطلقوا هتافهم التقليدى « عاش القيصر ! » وتفرقوا بسلام وودعت « الكتله التقدمية » التى انعزلت عن القوى الديمقراطيه إلى « الالتزام بالهدوء » وبذلك اعترفت بعجزها الكامل . وكشف الليبيراليون مرة أخرى عن أنهم لايستطيعون ، ولا يريدون ، أن يخوضوا نضالا صريحا من أجل السلطه ، ومن الواضح أن خوفهم من الثورة كان أكبر من سخطهم على الأوتوقراطية .

وعندما وصل إذلال النظام فى خريف ١٩١٦ إلى حد لايطاق ، إلى درجه أن أقرب أقرباء القيصر بدأوا يتحدثون عن ذلك شرع أفراد المعارضه

البرجوازية فى انتقاد الحكومة بعبارات أشد ، وانتقلوا من « معاصرة » النظام إلى « الهجوم » عليه ، وذلك بالمضى الليبرالى للمكافحة بطبيعة الحال . ومن أمثلة ذلك أن ب . ن . مليوكوف قال فى كلمة ألقاها فى مجلس الدوما فى أول نوفمبر إنه يتهم « الحاشية » الملتفة حول القيصر بالتمهيد لصلح منفرد مع ألمانيا وتحريك الاضطرابات ضد الحكومة ، وما إلى ذلك .

وفى الجو السياسى الساخن فى تلك الأيام أثارت كلمة زعيم حزب الكاديت كثيرا من المناقشات . ورغم أن الرقيب حذفها فقد انتشرت فى أنحاء البلاد وطبعت منها آلاف النسخ . وقد وصف المؤرخون الموالون للكاديت ومن تبعهم من المؤرخين فى كثير من البلاد الأخرى كلمة مليوكوف فى أول نوفمبر ١٩١٦ بأنها « إشارة الهجوم الثورى » رغم أن صاحبها وحزب الكاديت الذى يمثله لم يكونا يقصدان ذلك إطلاقا . ومن المهم أن مليوكوف ذكر فى ختام كلمته وبعبارات صريحة وواضحة أن المعارضة فى الدوما ستناضل ضد الحكومة « بجميع الوسائل المشروعة » . ولم ينقض وقت طويل حتى قال س . ا . شدلوفسكى زعيم « الكتلة التقدمية » بعبارات أكثر صراحة انه « بينما تعتقد الحكومة أننا ندبر ثورة فإننا فى الواقع نسعى إلى منعها » . فنحن لا نكسب شيئا بالهجوم على الحكومة » . وبذلك بقيت البرجوازية الليبرالية متمسكة حتى النهاية بالتكتيك الذى جربته منذ عام ١٩٠٥ ، فبينما كانت جماهير الشعب تناضل صراحة ضد النظام الأوتوقراطى وتعارض الحرب ، تسلل الليبراليون فى سكون إلى مواقع السلطة من وراء ظهرها على أمل أن يصلوا إلى اتفاق مع النظام على اقتسام المناصب الوزارية .

وفى تلك الظروف يبدو أنه تم التفكير جديا فى القيام بانقلاب فى داخل حدود القصر . وكانت الفكرة فيه اقصاء نقولا الثانى والكسندرا تيودوروفنا ، وانتقال التاج إلى ابنهما الكسى الذى يبلغ من العمر ١٢ عاما ، على أن يكون

ميخائيل الكسندروفتش شقيق القيصر وصياً على العرش . وكانت هذه الخطة موضع حديث كثير فى بعض الدوائر البرجوازية فى أواخر ١٩١٦ وأوائل ١٩١٧ . وبعد الكثير من المناقشة والتردد وضع تصور عام للانقلاب . وكان المفروض أن يقوم المتآمرون بالإستيلاء على قطار القيصر أثناء مروره بين القيادة العامة فى مدينة موجيليف وبتروجراد ، وأن يقوم ضباط الحرس باعتقال القيصر وإجباره على التنازل وإرساله إلى المنفى فى الخارج . ولكن مضت أشهر طويلة دون اتخاذ خطوات عملية للأعداد للانقلاب من الناحية العملية . وقد اعترف مليوكوف بذلك فيما بعد عندما كتب يقول أنه وأصدقاءه « لا يجيدون التآمر . ولم يكن لجميع الاستعدادات للانقلاب أدنى تأثير على سير التاريخ .

فصير روسيا كان من الحتم أن تقرره ثورة ولا يقرره انقلاب يدبره قلة من البرجوازيون . وقد اعترف مليوكوف فيما بعد بقوله : « إن ثورة ٢٠ فبراير لم تكن من صنعنا ، وقد حدثت رغم إرادتنا .

نهاية امبراطورية الصقر ذى الرأسين

فى بداية عام ١٩١٧ كانت روسيا على عتبة ثورة جديدة . فقد بلغت كراهية الشعب للأتوقراطية ذروتها . وكان كل طابور للخبز فى المدن يتحول تلقائيا إلى اجتماع سياسى تناقش فيه سياسة الحكومة بعبارات خالية من المجاملة .

وقد جاء فى تقرير لرئيس فرع موسكو التابع لإدارة الأمن يصور فيه المشاعر العامة ، أن عبارات مثل « الضيق بالحال » و « العداء الشديد » و « السخط » وما إليها لاتعتبر إلا تعبيراً خفيفاً على الواقع .

واستطرد التقرير الى أنه يمكن القول بأن « المشاعر الحالية إذا قورنت بالمشاعر التى سادت فى ١٩٠٥ — ١٩٠٦ فلاشك فى أن مشاعر تلك الفترة كانت أكثر تعاطفا مع الحكومة . . وقد بلغت الجماهير درجة من التوتر والعداء بحيث

وكانت هذه الخطة
ميخائيل الكسندروفتش شقيق القيصر وصياً على العرش .
موضع حديث كثير فى بعض الدوائر البرجوازية فى أواخر ١٩١٦ وأوائل
١٩١٧ . وبعد الكثير من المناقشة والتردد وضع تصور عام للانقلاب . وكان
المفروض أن يقوم المتآمرون بالإستيلاء على قطار القيصر أثناء مروره بين
القيادة العامة فى مدينة موجيليف وبتروجراد ، وأن يقوم ضباط الحرس باعتقال
القيصر وإجباره على التنازل وإرساله إلى المنفى فى الخارج . ولكن مضت أشهر
طويلة دون اتخاذ خطوات عملية للأعداد للانقلاب من الناحية العملية . وقد
اعترف مليوكوف بذلك فيما بعد عندما كتب يقول أنه وأصدقاءه « لا يجيدون
التآمر . ولم يكن لجميع الاستعدادات للانقلاب أدنى تأثير على سير التاريخ .

فمصير روسيا كان من الحتم أن تقرره ثورة ولا يقرره انقلاب يدبره الساسة
البرجوازيون . وقد اعترف مليوكوف فيما بعد بقوله : « إن ثورة ٢٧ فبراير
لم تكن من صنعنا ، وقد حدثت رغم إرادتنا .

نهاية امبراطورية الصقر ذى الرأسين

فى بداية عام ١٩١٧ كانت روسيا على عتبة ثورة جديدة . فقد بلغت كراهية
الشعب للأتوقراطية ذروتها . وكان كل طابور للخبز فى المدن يتحول تلقائيا إلى
اجتماع سياسى تناقش فيه سياسة الحكومة بعبارات خالية من المجاملة .

وقد جاء فى تقرير لرئيس فرع موسكو التابع لإدارة الأمن يصور فيه
المشاعر العامة ، أن عبارات مثل « الضيق بالحال » و « العداء الشديد » و
« السخط » وما إليها لا تعتبر إلا تعبيراً خفيفاً على الواقع .

واستطرد التقرير إلى أنه يمكن القول بأن « المشاعر الحالية إذا قورنت
بالمشاعر التى سادت فى ١٩٠٥ — ١٩٠٦ فلاشك فى أن مشاعر تلك الفترة كانت
أكثر تعاطفا مع الحكومة . . وقد بلغت الجماهير درجة من التوتر والعداء بحيث

لم تعد تبالى بالتعبير عن مشاعرها سواء تجـــاه الحكومة أو تجاه السلطة العليا . . . . .

أما الفلاحون فإن حديثهم كان يدور حول شيء واحد : ترى متى ستنتهى هذه الحرب اللعينة ؟ وكانت الأنباء عن الحالة المعنوية للجيش مفزعه للقيصريه ، إذ كانت تردد أن الجيش لم يعد يؤمن بالنصر ، وأن الجنود يرون أن تصرفات قادتهم هى الخيانة بعينها ، وأنهم يريدون إنهاء الحرب فى أقرب وقت ممكن . وكان من رأى السلطات القيصرية أن القاعدة البحرية فى كرونستاد قد تحولت إلى برميل بارود أو شك فتيله على الاشتعال ، وأن الانفجار يمكن أن يحدث فى أى لحظة[1] .

وكما كان الحال من قبل ، كانت الحركة الثورية تحت قيادة الطبقة العامله ، وكانت طليعتها بروليتارية بتروجراد التى يصل عددها إلى ٤٠٠,٠٠٠ . وقد ولدت طاقتها الثورية من خلال مجموعة كبيرة من الأسباب الاقتصادية والاجتماعيه والسياسية ، وتحددت بتقاليدها النضالية والأممية وكذلك بنشاط المنظمات البلشفية فالثورة لم تكن فقط نتيجة للفقر والحرمان اللذين يعانيهما الشعب الذى أنهكه الكدح القاصم للظهور ، بل نمت أيضا من احتجاجه الواعى على حرب السلب والنهب التى لم تكن تعنيه فى شيء ، وعلى النظام الاجتماعى الظالم ، وعلى السياسة غير الديمقراطية للنظام الاوتوقراطى .

وفى يناير وفبراير ١٩١٧ بلغ عدد المضربين فى روسيا ٦١٠ ألف عامل . واشترك ٨٥ ٪ منهم فى إضرابات سياسية . وحتى ذلك الحين لم يكن هناك بلد واحد شهد تحركات فى مجال الصناعة على هذا النطاق وبهذه الكثافة . وكتبت إدارة

---

(١) كانت كرونستاد قلعة وميناء يقدم الخدمات للأسطول ويضمن الدفاع عن بتروجراد من البحر .

قد أدركت أن الإضراب العام والثورة التى تعقبه أمران ضروريان ويمكن تنفيذهما » .

وكانت بتروجراد هى محط أنظار الوطن كله فى تلك الأيام . فقد اندلعت فيها موجة من الإضرابات الواسعة فى ٩ يناير عند احتفال العمال بذكرى إطلاق السلطات القيصرية النيران على مظاهرتهم السلمية فى ١٩٠٥ . واستؤنفت المظاهرات والتحركات العمالية فى العاصمة فى ٢٣ فبراير (٨ مارس حسب التقويم الجديد) الذى كان هو اليوم العالمى للمرأة . واستمر التحرك فى الاتساع فى الأيام التالية وتحول فى ٢٧ فبراير إلى انتفاضة ظافرة للعمال والجنود ضد النظام القيصرى

فى كل صباح كان آلاف العمال يطالبون بالسلام والخبز والحريه ، ويتدفقون من مشارف طريق « نيفاروسبكت » الشهير فى قلب المدينه ، كأنهم موجه المد العارمه . وانضم إلى اجتماعاتهم ومظاهراتهم الطلبه والموظفون والمثقفون ذوو الفكر الديمقراطى ، ثم انضم إليهم بعد ٢٦ فبراير الجنود الذين انتقلوا إلى جانب الثورة . وكانت الأناشيد الثوريه تسمع فى كل مكان ، واللافتات والآيات الحمراء ترفع وقد كتب عليها « تسقط الحرب ! » ، « يسقط الاستبداد ! » ، « تحيا الجمهوريه ! » .

وبدأت السلطات فى تنفيذ خطتها « لمواجهة الشغب » التى كانت قد وضعت مقدماً فى اليوم الأول للثورة ، ٢٣ فبراير . ولكن رغم مابذله الضباط من جهود يائسه فإن أفراد البوليس والجيش النظامى لم يبدوا حماسة خاصه . وكانت القوات قد تلقت فى مساء يوم ٢٣ فبراير الأمر باستخدام الأسلحه الناريه ضد المتظاهرين وفى اليوم التالى أطلق الجيش والبوليس النار بالفعل عليهم وقتل بضع عشرات .

لكن الجماهير، على عكس ما كانت السلطات القيصرية تأمل ، لم تتراجع . وعندما عاد الجنود إلى ثكناتهم ترددت بينهم الشكوى : « ليس فى وسع المرء أن يطلق النار على أفراد شعبه ... إن كل مايطلبونه هو الخبز ... لماذا ينبغى أن نذبح أناساً أبرياء » ؟

وفى اليوم التالى بدأ الجنود فى الانتقال إلى جانب العمال ، وإعطائهم السلاح، وتعيير الضباط الذين يبدون رجعيه شديدة . وكان يوم ٢٧ فبراير اليوم الحاسم فى الثورة الروسيه الثانية. ففى الصباح انضم ١٠٫٠٠٠ جندى إلى العمال، وأعقبهم فى العصر ٢٥ ألفا آخرون ، وأعقبهم فى المساء نحو ٧٠ ألفا . واستولى الثائرون على جميع النقاط الهامة فى المدينه : الكبارى ، ومحطات السكة الحديد ، والترسانة، ومكتب التلغراف والبريد، وغيرها من المؤسسات الحيوية. بل إن المدينه بأسرها كانت فى الواقع فى أيدى الثوار فيما عدا قصر الشتاء وقلعة بطرس وبولس ودار القيادة البحرية . وكانت القوات الموالية للحكومة تذوب ساعة بعد أخرى . ووجه رئيس مجلس الدوما ، رودزيانكو ، خطابا ينضح بالقلق إلى القيصر الذى بقى فى مقر القيادة العامة قال فيه : « أن الموقف يسير من سىء إلى أسوأ . ويجب اتخاذ إجراءات فوريه لاننا إذا انتظرنا إلى الغد سيكون الأوان قد فات . وقد حلت الساعة التى سيتقرر فيها مصير البلد والأسرة الحاكمة » .

ولكن حتى بعد ذلك لم يفهم القيصر أنها ثورة شاملة وليست مجرد « شغب من أجل الغذاء » فى العاصمة . وقد قال القيصر : « إن ذلك الرودزيانكو السمين قد أرسل إلى مرة أخرى كلاما فارغا لن أعنى حتى بالرد عليه » .

وفى ذلك الحين كان مصير النظام الملكى قد تقرر بالفعل. فحامية بتروجراد بكاملها تقريبا ، ويبلغ تعدادها نحو ١٧٠ ألف جندى ، كانت قد انتقلت إلى جانب الثورة خلال اليوم الاول من مارس . وفى يوم ٣ مارس إنضم أسطول بحر

البلطيق بكامله إلى الثورة . وقبض على نقولا الثانى أثناء عودته إلى العاصمة بالقطار ، فى مدينة بسكوف .

وفى يوم ٢ مارس أجبر على التنازل باسمه واسم ابنه لصالح أخيه ميخائيل . وبعد أيام قليلة قبض على القيصر وأرسل أولا إلى « تسارسكوى سيلو » مع أسرته. ثم أرسل بعد ذلك ، فى أغسطس ١٩١٧ ، إلى مدينة تبولسك فى سيبريا .

وكان انتصار الثورة فى بتروجراد إشارة لإسقاط السلطات القيصرية فى كل أنحاء البلاد . وفى أعقاب ذلك جاءت انتفاضة موسكو فى ٢٨ فبراير وأول مارس وخلال الأسبوع التالى امتدت الثورة إلى معظم المدن الرئيسية الأخرى . وكانت الصورة متشابهة فى كل مكان : إضرابات عمالية ، ومظاهرات ، واجتماعات ، وانتقال جنود الحاميات المحلية إلى جانب الشعب . وكان الجهاز الإدارى القيصرى قد وصل إلى درجة من الشلل ، والتحرك الثورى فى الجيش قد وصل إلى مدى فى بداية ١٩١٧ ، بحيث أمكن إتمام ثورة فبراير بخسائر قليلة نسبياً . فكان عدد من قتلوا فى بتروجراد ١١٧ شخصا ، بينما لم يتجاوز عدد من فقدوا أرواحهم فى موسكو ثمانية . وقامت الجماهير الثورية فى كل مكان بإطلاق سراح المسجونين السياسيين ، واحتلت الإدارات الحكومية ، وانتزعت الشارات التى تحمل النسر ذا الرأسين ، شعار الأوتوقراطية ، ومزقت وأحرقت صور القيصر. وأطلق الرصاص على موظفى القيصر الذين اكتسبوا أشد الكراهية بمقتضى أحكام أصدرتها المحاكم الشعبية التى تشكلت تلقائياً فى المواقع المختلفة .

ولم تلبث الثورة أن امتدت لا إلى حاميات الجيش فى المناطق الداخلية وحدها بل وشملت الجيش فى الميدان أيضا . ونظم الجنود مظاهرات وعقدوا لقاءات واجتماعات واسعة . وتشكلت لجان للجنود فى وحدات الجيش . وطرد الضباط

والقادة المعروفون بإخلاصهم الشديد للقيصر ، وانتخب مكانهم قادة آخرون من بين الجنود وصغار الضباط ذوى الفكر الثورى . ولم تقف أغلبية الجنود وراء القائد العام بل شاركت مشاركة إيجابية فى إسقاط الاوتوقراطية ومدت يد المساعدة للانتفاضة المسلحة . واندلعت فى الجيش نيران صراع طبقى حاد بين الجنود الثوريين والضباط الرجعيين ذوى الأفكار الملكية .

وبناء على ما قاله القائد الروسى المشهور أ . أ . بروسيلوف فإن عدد الضباط الذين تبعوا الجنود فى انضمامهم للثورة فى فبراير ومارس ١٩١٧ لم يتجاوز ٢٠ ٪ ، وحتى من فعلوا ذلك لم يكونوا دائما مخلصين .. أما الآخرون ، فقد أغلقوا مواقعهم حولهم ، وأخفوا حقدهم على الثورة والثوريين . وكان الموقف فى الجبهة ، والتهديد المستمر بهجوم ألمانى آخر ، يحولان دون تطور العملية الثورية إلى درجة ما . لكن الجيش فى الميدان كان إلى جانب الثورة بوجه عام . وكان موقف الجيش أيضا تعبيرا عن الموقف بين الجماهير الغفيرة للفلاحين الذين تتألف منهم أغلبية القوات المسلحه . أما فى المناطق الريفيه فقد بدأت الحركه ضد ملاك الأراضى فى ربيع ١٩١٧ . وبحلول مارس من ذلك العام كان قد سجل أكثر من بضع عشرات من التحركات الفلاحية فى محافظات البلد الثمانين .

وبالتالى فإن الاوتوقراطية قد أسقطت نتيجة للعمل المشترك من جانب القوتين : البروليتاريا فى المدن وجماهير الجنود الذين تم تجنيدهم من بين العمال والفلاحين . وبذلك تغلبت هذه الثورة على إحدى نواحى الضعف الرئيسية فى ثورة ١٩٠٥ — ١٩٠٧ ، ففى تلك الايام كان العمال والجيش فى جانبين مختلفين من جوانب المتاريس . ومن الامور ذات الأهمية القصوى أيضا أن البروليتاريا الروسية بقيادة الحزب البلشفى كان لها الدور الحاسم فى أحداث فبراير ومارس ١٩١٠ .

ونحن لم نورد حتى الآن غير الاحداث الرئيسيه التى ارتبطت بإسقاط القيصريه فى ثورة فبراير البرجوازيه الديمقراطيه . غير أن الامر كان أخطر من ذلك . فمن المهم أن نعرف من الذى قاد نضال جماهير الشعب ، وما الموقف الذى اتخذته البرجوازيه فى تلك الايام ، وكيف حلت مسألة السلطه ، وهى المسألة الرئيسيه فى كل ثورة . وتزداد أهمية توضيح هذه النقاط لانه تسود بشأنها آراء متحيزة ، متناقضه ، غير دقيقه ، وخاطئه تماما فى بعض الاحيان فى الكتابات التاريخيه فى الدول الاخرى .

وعلى سبيل المثال فإن ولم تشمبرلين ، وهو مؤرخ أمريكى معروف ، يقول أن « إنهيار الإمبراطوريه الروسيه فى ١٢ مارس ١٩١٧ كان نتيجه لتحركات جماهيريه تلقائيه غير مخططه وغير منظمه وبغير قيادة بشكل لم يشهد له التاريخ مثيلا من قبل »[١] .

وليس هو الوحيد الذى يقول ذلك . فهم يزعمون أيضا أن المنظمات البلشفية الصغيرة الضعيفة فشلت فى أن تؤثر بأى شكل ملموس فى سير الاحداث الثوريه فى بتروجراد وفى المراكز الصناعية الرئيسية فى روسيا . ويقول المؤرخ البريطانى ا . كار أنه لايعتقد أن الافكار البلشفية كانت من العوامل الهامه التى أسهمت فى انتصار ثورة فبراير[٢] .

وبالإضافة إلى ذلك فإن عدداً من المؤرخين الاجانب يعمدون فى أعمالهم أيضا إلى تشويه دور البرجوازية الليبرالية . فيزعمون أن الليبراليين مهدوا الطريق لانتصار الانتفاضه الشعبيه . وعلى سبيل المثال فإن المؤرخ البريطانى جورج

(1) William H. Chamhenlin the first Revol ation the Ruroian Reviеu 1964 Vol. 26 No 1 P.4

(2) See E H Cars Studieo in Reuolution London 1956 P.134

كاتكوف ، وهو ينحدر من أصل روسي ، يقدم اكتشافاً مثيراً في كتابه « روسيا ١٩١٧ — ثورة فبراير » فيزعم أنه كانت هناك في تلك الأيام مؤامرة ماسونيه واسعه النطاق . ويقال أن المؤامرة شملت جميـــع الدوائر الليبراليه المعاديه للأوتوقراطيه ، وأنه كان لها دور حاسم في سقوط القيصريه . كما يزعمون أن تنظيما ماسونيا سريا واسع النطاق كان يضم الكثير ممن أصبحوا وزراء في الحكومه المؤقته . ووفقاً لهذا القول (وهو بالمناسبه غير مدعم بأى مستندات) فإن المنظمه الماسونيه كانت تتبع سياسه انهزاميه واضحة من أجل إضعاف نفوذ الأوتوقراطيه . ووفقاً لما يقوله كاتكوف فإن تلك المنظمه هي التي لعبت الدور الرئيسي في أحداث فبراير ١٩١٧ ، وأن قادتها أصبحوا فيما بعد أعضاء الحكومه المؤقته كما تبذل أيضا محاولات لإبراز أهميه مجلس الدوما الذى يوصف بأنه « المجلس الوطني الأوحد » أثناء الثورة ، وأنه أصبح الخليفه الطبيعي للقيصريه وأنه تسلم سلطه الدولة نظراً لأن « الجماعات غير المنظمه من العمال بملابسهم الرثه والجنود بزيهم الرسمي الرمادى » والذين أسقطوا القيصريه « لم يكن لديهم شيء ملموس يضعونه في مكان النظام القديم »[1] .

وليس في عزمنا أن ندخل في مجادلات طويله مع هذه النظريات عن ثورة فبراير . ونكتفي بأن نقدم للقارىء بعض الوقائع لمساعدته في تكوين رأيه الخاص .

إننا عندما نحلل « آليات » مولد أى ثورة ، نفترض أن الانفجار الثورى يلخص نتائج تراكم وتعمق التناقضات الإجتماعيه ، وهي عمليه موضوعيه بطبيعتها ، والعمل التحضيرى الهائل الذى كانت الأحزاب الثوريه تقوم به بين جماهير الشعب

(1) See Willam H . Chamderlin the Rvssian Revolution 1917 1921 New York 1935 vol 1 pp . 73,80

والجماهيرى الحق ، لا يمكن أن تستغنى عن قدر من عنصر التلقائيه ، فهذا العنصر يشهد على القوة الهائله والأفق العريض للثورة لا على ضعفها . غير أنه لا يمكن لأى ثورة أن تكون تلقائيه خالصه ، لأنه لا مفر من أن يظهر فى مجراها الدور القيادى لحزب ثورى أو أحزاب ثوريه متعددة بطريقه أو أخرى . كان من الواضح أن جماهير الشعب ، أى الملايين من العمال و الفلاحين والجنود والطلبه الخ الذين ينضمون إلى الحركه فى آخر الأمر ، إنما يتطورون و « ينضجون » سياسيا بعد أن تكون الحركه قد بدأت ، وخلال مجرى النضال .

وكانت جميع هذه العوامل موجودة فى ثورة فبراير فى روسيا . وصحيح أنه لم يخطط مسبقاً لقيامها فى يوم ٢٣ فبراير ١٩١٧ ، سواء من جانب البلاشفه أو أى تنظيم ثورى آخر ، وأن تحرك الجماهير فى تلك الأيام اتسم بقدر كبير من التلقائيه ومن الصحيح أيضا أن الحزب البلشفى كان قد أصيب بضعف شديد نتيجة لضربات القيصريه ولم يكن لديه غير ٢٤ ألف عضو فى وقت ثورة فبراير ، من بينهم ألفان فى بتروجراد . ومع ذلك فهناك أسباب عديدة تدعو للقول بأن البلاشفه ، والبلاشفة وحدهم ، هم الذين قاموا بالدور الرئيسى فى تلك الايام التاريخيه من فبراير ١٩١٧ ، وإن لم يكونوا وحدهم قادة الجماهير الثوريه .

تشهد على ذلك الحقائق التاليه . كان البلاشفه فى بتروجراد قد بدأوا بالفعل الإعداد للاحتفال بيوم المرأة العالمى فى منتصف فبراير ١٩١٧ . وقد جاء فى منشور أصدرته لجنه بتروجراد التابعه لحزب العمال الاشتراكى الديمقراطى الروسى بهذه المناسبه ، دعوة للعمال والعاملات إلى تشكيل حكومه ثوريه مؤقتة ، والإطاحه بالنظام القيصرى ، وإنشاء جمهوريه ديمقراطيه ، وتطبيق يوم العمل ذى الثمانى ساعات ، وتسليم جميع الملكيات الزراعيه للفلاحين . وعندما تحول فى صباح

٢٣ فبراير الاضراب الذى بدأ استجابة لدعوة البلاشفه إلى مظاهرات واضطرابات جماهيريه فى الشوارع ، كان من الصعب أن يتنبأ أحد بما إذا كانت الامور ستتطور إلى صدام حاسم مع القيصريه . ولكن كان من الامور ذات الدلاله الكبيرة أن القاده البلاشفه انتهجوا بالفعل سياسه توسيع الحركه الشعبيه إلى أبعد مدى فى مساء يوم ٢٣ فبراير . وتقرر على الفور البدء فى الحمله لكسب الجنود إلى جانب العمال وتسليح الوحدات البروليتاريه .

وفى اليوم التالى اتخذ القرار بالانتقال إلى الإضراب السياسى العام بهدف تطويره ليصبح انتفاضة شامله . وكان ذلك فى اجتماع عقده قادة التنظيمات البلشفيه فى بتروجراد والمكتب الروسى للجنه المركزيه فى الحزب الاشتراكى الديمقراطى للعمال الروس . وشن البلاشفه حمله سياسيه فى مصانع بتروجراد ووحدات الجيش المرابطه بها من أجل إقامه التحالف الثورى بين الجيش والشعب ، وهو التحالف الحاسم فى نتيجة الثورة .

وقد جاء فى منشور صدر عن المكتب الروسى للجنه المركزيه للحزب فى ٢٥ فبراير دعوة « الجميع إلى المعركه ! إلى الشوارع ! » وأصدر البلاشفه فى الوقت ذاته منشوراً آخر يدعو الجنود الوقوف إلى جانب العمال . وفى ذلك اليوم عقدت لجنه الحزب فى بتروجراد اجتماعاً لتحديد الخطوات العمليه التى تتخذ فى حالة تحول الاضراب إلى انتفاضه شامله . وكان من تلك الخطوات إنشاء المتاريس ، والاستيلاء على سنترالات التليفون ومحطه الكهرباء وما إليها . ورغم القبض على نحو ١٠٠ من أعضاء الحزب النشيطة فى ليلة ٢٦ فبراير فقد استمر البلاشفه فى قيادة الحركه . وفى اجتماع عقد فى وقت متأخر عصر يوم ٢٦ فبراير قرر قادة المنظمات البلشفيه تحويل الاضراب إلى انتفاضه شامله . وأبلغ قرار القادة البلاشفه إلى الخلايا الحزبيه فى المصانع وأصبح برنامج عمل لجميع المنظمات البلشفيه .

وفى يوم ٢٧ فبراير قاد البلاشفة الانتفاضة فى شوارع المدينة . وصدر منشور فى اليوم ذاته يدعو إلى انتخاب مجلس (سوفيت) لنواب العمال ، والواقع أن الانتخابات كانت قد بدأت فى المصانع بالفعل منذ يوم ٢٤ فبراير ، بمبادرة العمال أنفسهم . وذكرى مجالس السوفيت الأولى التى شكلت فى ١٩٠٥ والتى كانت الشكل الجنينى للحكومة الشعبية الحقة الجديدة ، بقيت حية فى نفوس العمال طوال الأعوام الاثنى عشر التى انقضت بين ثورة ١٩٠٥ — ١٩٠٧ وثورة فبراير . وعندما بدأ العمال فى تشكيل مجالسهم مرة أخرى ، أيد البلاشفة مبادرتهم على الفور . وفى نفس اليوم ٢٧ فبراير ، أصدر البلاشفة منشوراً تضمن بيانا بعنوان « إلى مواطن روسيا » ، وكان البلاشفة هم الحزب الأول والوحيد الذى أعلن برنامجه السياسى وشعاراته وخطة محددة للاستمرار فى تطور الثورة حتى قبل انتصارها النهائى . ودعا البيان إلى تشكيل حكومة ثورية مؤقتة ، وقمع المؤامرات المعادية للثورة ، وإنهاء الحرب على الفور بالجهود المشتركة للعمال فى جميع البلاد . كما طالب البيان بإقامة جمهوريه ديمقراطيه ، وتطبيق يوم العمل ذى الثمانى ساعات ، ومصادرة الأراضى التى يملكها النبلاء وأسره القيصر .

وبفضل الأعمال السابقه التى كان البلاشفه قد قاموا بها ، فقد كانوا مستعدين لأى تطور تاريخى يطرأ ، مهما يكن مفاجئا ، وكانوا قادرين على مسانده المبادرة الثوريه للجماهير على الفور ، بل والتأثير عليها سواء من الناحيه الفكريه أو التنظيميه . وفى تلك الايام كان البلاشفه دائما فى الصف الاول للنضال — على عكس المناشفه والاشتراكيين الثوريون الذين اتخذوا خلال المعارك الثوريه موقفاً أقرب إلى موقف المتفرجين منه إلى موقف القادة وبفضل أعمال البلاشفه كان مسلك الجماهير بعيداً عن مجرد الشغب الفوضوى . فقد كان هناك هدف مشترك (سقوط الحرب والاتوقراطيه) ووسائل موحده للنضال ، تشمل الاضرابات ، وحض العمال فى المصانع المجاوره على الاضراب ، والاجتماعات

والمظاهرات فى قلب المدينة ، والتآخى مع الجنود ، والمواجهة المسلحة لصد قوات الجيش والبوليس والاستيلاء على مكاتب الحكومة وعلى المراكز الاستراتيجية الرئيسية فى المدينة . ومن الامور ذات الدلالة أنه مع ازدياد وحدة النضال ، زادت عناصر الوعى السياسى والقدره على تنظيم الجماهير . وإن كان من الصحيح أن سرعه الهائلة والتدفق الواسع للعمال والجنود واتساع حركتهم لم يمكن البلاشفه من مد تأثيرهم التنظيمى إلى هذا الفيضان الهائل كله . ولكن بالمقارنه بالأحزاب السياسيه الأخرى يتبين أن البلاشفه قاموا بعمل كبير فى هذا السبيل ، كما نجحوا فى أن يوفروا للنضال التوجيه الايديولوجى السليم ، رغم أن زعيم الحزب فلاديمير لينين كان خارج روسيا فى ذلك الحين ، مما جعل من الأصعب على البلاشفه بغير شك أن يحددوا اتجاهاتهم فى الوضع المعقد والمتناقض الذى نشأ وقتها .

أما المناشفه والاشتراكيون الثوريون ، فقد كانت الثوره بالنسبه إليهم مفاجأه ، بل أنهم لم يأخذوها مأخذ الجد فى البدايه . وقد حاول المناشفه فى أول الامر تهدئه سرعة الحركه وعلقوا آمالهم على مجلس الدوما . وكانت أكثر المجموعات يساريه من الفئات الاشتراكيه الديموقراطيه غير البلشفيه ، وهى المشتركه بين أحياء المدينه ، تتحرك متخلفه بوضوح عن سير الاحداث ، ولم توجه الدعوه للعمال والجنود للقيام بانتفاضه شامله . وكانت تلك المجموعه تضم المناشفه والتروتسكيين وبعض الافراد التوفيقيين من البلاشفه ممن انحرفوا عن طريق الحزب . وقد ترددت تلك الفئات فى التحرك ، واتخذت موقف الانتظار لترى مايكون ، وعارضت فى التعجيل بتطور الاحداث . وكان حزب الاشتراكيين الثوريين اليساريين قد فقد كثيرا من قوته نتيجه لاعمال القبض والاعتقال . ولم يكن « المجموعه المركزيه للمبادره » التابعة للمناشفه اليمنيين أثر يذكر بين جماهير الشعب أيضا : وكانت هذه المجموعات الصغيره

كلها تعارض الحرب والأتوقراطية ، وتتصل بانتظام بالبلاشفة ، وتتبادل المعلومات معهم ، لكن تلك الاتصالات لم تنجح فى التوصل إلى نتائج عملية . وجاء العمل الموحد للطبقة العاملة خلال الثورة من أدنى خلال سير الصراع ، وليس عن طريق الاتفاق بين الأحزاب . ومع ذلك فعندما عقد مجلس (سوفييت) نواب العمال فى بتروجراد اجتماعه الأول فى ٢٧ فبراير (وابتداء من أول مارس ضم السوفييت أيضا مندوبين لجنود حامية المدينة وأصبح اسمه سوفييت مندوبى العمال والجنود) كان المناشفة والاشتراكيون الثوريون هم الذين استولوا على مراكزه القيادية . وكان السبب الأول فى هذه المفارقة أن ثورة فبراير ، وهى ثورة حقيقية للشعب وبالشعب ، جعلت من روسيا البلد الذى يتمتع بأكبر قدر من الحرية السياسية فى العالم . فقد دفعت إلى النشاط السياسى جماهير هائلة من الشعب كانت بطبيعتها الإجتماعية أقرب إلى البورجوازية الصغيرة وبسبب تفوقها العددى البحت فإنها دفعت إلى الصفوف الخلفية بالعمال ذوى الوعى السياسى ، وأثرت تأثيرا ملموسا على تشكيل مجالس السوفييت فى بتروجراد والمدن الأخرى . وكانت الشعارات التى رفعها المناشفة والاشتراكيون الثوريون والتى استغلت المشاعر الوطنية بدعوتها إلى « الدفاع عن روسيا الثورية ضد ألمانيا الاستبدادية » قد أصبحت برنامجا يلقى لدى تلك الجماهير البورجوازية الصغيرة قبولا أكبر مما يلقاه برنامج البلاشفة ، ولاسيما لدى الجنود المجندين الذين كان معظمهم من الفلاحين الذين لم يخرجوا من قراهم إلا منذ أمد قريب . ولم تكن البورجوازية الصغيرة ترى فى البلاشفة إلا « انهزاميين » و « متطرفين » .

وكان الجنود يمثلون أغلبية ساحقة فى سوفييت بتروجراد الذى ضم ٢٠٠٠ من مندوبيهم فى مقابل ٨٠٠ من ممثلى الطبقة العاملة . وخلال الحرب انضم إلى الطبقة العاملة كثير من العناصر الفلاحية والعناصر ذات الوضع الطبقى غير المحدد . وأخيرا وليس آخرا فقد كان البلاشفة منغمسين أكثر مما ينبغى فى العمل الثورى

المباشر فى شوارع المدينه ولم يوجهوا الاهتمام الكافى لتأكيد نفوذهم بين الجماهير داخل مجالس السوفييت . وكان من أثر ذلك أن أصبح المندوبون البلاشفه فى البدايه يمثلون أقليه ضئيله فى سوفييت بتروجراد ومع ذلك فقد اتخذت مجالس السوفييت غير البلشفيه ذاتها ، فى الوضع الثورى الهادر فى تلك الأيام ، عددا من القرارات الهامة ، من بينها « الأمر رقم واحد » الشهير الموجه إلى وحدات حاميه المدينه .

ولكن فلنعد إلى إحداث ٢٧ فبراير . فى ذلك اليوم تشكلت اللجنه المؤقته لمجلس الدوما فى نفس قصر تاوريدا فى ذات الوقت تقريبا مع تشكيل مجلس سوفييت نواب العمال . وضمت اللجنه ميليوكوف وورود زيانكوا وعددا آخر من ممثلى الاكتوبريين والكاديت والتقدميين وكذلك الناشفه والترودفيك . وفى ليله ٢٧ فبراير أصدرت اللجنه المؤقته دعوة إلى الأمه تقول فيها إنها تولت مسؤوليه إعادة الأمن والنظام وعينت مسؤولين (قوميساريين) من أعضاء الدوما لإدارة مختلف أوجه حياة المجتمع إلى حين تشكيل حكومه جديدة . غير أن المحاولة الأولى التى بذلتها اللجنه لإعادة « النظام » إلى الجيش ، أى دفع الجنود إلى العودة لثكناتهم وإلزامهم بإطاعه رؤسائهم السابقين ، انتهت بالفشل الذريع .

وبناء على طلب الجنود أصدر سوفييت بتروجراد « الامر رقم واحد » الموجه إلى وحدات حاميه المدينه . وتضمن الامر تشكيل لجان منتخبه للجنود والبحارة فى الجيش والاسطول . وأن توضع جميع الاسلحه تحت سيطرة تلك اللجان . وأن القوات لاتخضع فى تحركاتها السياسيه إلا لمجلس سوفييت بتروجراد ولجانها المنتخبه . وتضمن الامر إلغاء رتب الضباط ، وحظر المعامله المهينه للجنود ، ومنحهم جميع الحقوق المدنيه . وكان « القرار رقم واحد » بمثابه إنفجار هائل فقد انتشر بسرعه بين صفوف الجيش فى الجبهه وأصبح شعارا لحركه الجنود الجماهيريه الراميه إلى جعل القوات المسلحه أكثر ديموقراطيه . واضطرت اللجنه المؤقته للدوما إلى قبول « الامر رقم واحد » الذى عزز دور العمال والجنود فى النضال الثورى . وبينت هذه الواقعه بوضوح أن ساسه الدوما لا يملكون قوة على الإطلاق . ومع ذلك فإن المناشفه والاشتراكيين الثوريين الذين كانوا قد استولوا على القيادة فى مجالس سوفييت بتروجراد ، اتبعوا سياسه توفيقيه . وكانوا يعتقدون أنه لابد أن

يخلف القيصريه حكم البورجوازيه ، ونتيجه لذلك شكلت فى ٣ مارس حكومه مؤقته بورجوازيه بموافقه مجالس السوفييت . ولم تضم الحكومه غير ممثل واحد للديموقراطيه الثوريه هو أ . ف كيرينسكى ، وهو محامى كان يرأس مجموعه الترودوفيك وأصبح فى مارس ١٩١٧ عضوا فى الحزب الاشتراكى الثورى . وبذلك وحدت سلطه مزدوجه ، وهى ظاهره نادرة فى التاريخ ، إذ كان هناك تعايش بين مجلس سوفييت بتروجراد الذى يتمتع بتأييد شعبى كبير وبين الحكومه المؤقته التى كانت فى بادىء الأمر عاجزة تماما عن القيام بأى عمل . وحتى اللحظه الأخيرة كانت البورجوازيه تحاول إنقاذ النظام الملكى المنهار ، وأن تضع شقيقه القيصر ميخائيل على العرش . غير أن هذا الأخير لم تكن له قوة عسكريه تؤيده وآثر التنازل . وكان التحالف بين البورجوزيه والعناصر الثوريه تحالفا سطحيا تماما كان زواجا بالإكراه فلم يكن أمام البورجوزيه غير أن تتشدق بالتضامن مع الثورة . غير أن الاغراض الحقيقيه للبورجوزيه كانت مناقضه تماما لإرادة الشعب . ولذا لم تكن الإطاحه بالقيصريه إلا استكمالا للمرحله الاولى من الثوره ، والتى كان من المحتم فى تلك الظروف أن تواصل سيرها إلى الامام .

ولم تؤد الإطاحه بالقيصريه إلى حل المشاكل الإجتماعيه المعقده التى أدت إلى قيام الثوره الروسيه . فلم يكن الشعب فى حاجه فقط إلى الحريه (التى لم تلبث الحكومه المؤقته أن قيدتها) بل كانت فى حاجه أيضا إلى السلام ، والغذاء ، والارض : والحقوق المتساوية لجميع القوميات . وفى الوقت ذاته فإن الرأسماليين الذين كانت لهم السيطره على الحكومه المؤقته (وانضم إليهم منذ مايو ١٩١٧ المناشفة والاشتراكيون الثوريون) لم يتمكنوا فى أى وقت حتى أكتوبر ١٩١٧ من حل أى مشكلة جوهرية تواجه البلاد . وكانت أحداث فبراير ومارس ١٩١٧ مجرد بداية لصراع سياسى حاد قاد إلى إنتصار ثوره أكتوبر بعد ثمانيه أشهر .

فهرست

رقم إيداع ٥٢٨٥ / ٩٣ [illegible]

مطبعة [illegible]

هـذا الكتاب

● ألفه اثنان من المؤرخين السوفييت هما افنير كوربين وستانيسلاف تيوتيوكين ، بأسلوب مبسط للقارئ العادي غير المتخصص ، وهو جزء من سلسلة من الكتب بعنوان « القصة الحقيقية للثورة الروسية وبناء الاشتراكية » التي تصدر تحت اشراف الأكاديمي اسحق مينت ، والتي تغطي فترة طويلة تبدأ منذ عشية ثورة اكتوبر فى روسيا حتى الوقت الحالى . وتهدف الى مساعدة القارئ غير السوفييتى على فهم أسباب الثورة الاشتراكية فى روسيا .

والكتاب الحالى يتحدث عن الفترة التى سبقت الثورة منذ بداية القرن العشرين حتى قيام الثورة .

دار الثقافة الجديدة

الثمن : محلى :
تصدير :